بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة أثر عمل القلب(١٠)

زكاة القلب

د.ابراهيم بن حسن الحضريتي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمدَ لله، نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا، ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضْلِل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُهُ ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن الاهتمام بزكاة القلب، له آثاره العظيمة على سلامة قلب العبد، وسعادة صاحبه في الدنيا والآخرة، وسيتضح ذلك بحول الله وقوته من خلال البحث.

وهذا الكتاب –الذي أعانني الله عليه، ووفقني لأن أكتبه فله الحمد والمنة– هو العاشر في هذه السلسلة المباركة(أثر عمل القلب على العبادات).

وأسأل الله العظيم بمنه وكرمه أن يرزقني الإخلاص فيه، وأن ينفعني به وكل من قرأه والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الدكتور: إبراهيم بن حسن الحضريتي

إمام وخطيب جامع القناعة بشرائع المجاهدين بمكة المكرمة

ebrahim1407@gmail.com

وتنتظم عناصر هذا الموضوع في تمهيد وعدة مباحث.

التمهيد، وفيه النقاط الآتية:

أولاً: النصوص الدالة على زكاة القلب.

ثانياً: معنى زكاة القلب.

ثالثاً: هل بين زكاة النفس والقلب فرق؟

المبحث الأول: أهمية زكاة القلب.

المبحث الثاني: قواعد مهمة في تزكية القلب.

المبحث الثالث: الأسس العقدية لزكاة القلب، وفيه مطالب.

المطلب الأول: الشهادتان وأثرهما على زكاة القلب.

المطلب الثاني: التوحيد وأثره على زكاة القلب.

المطلب الثالث: الإيمان بالملائكة والكتب والرسل وأثره على زكاة القلب.

المطلب الرابع: الإيمان بالقضاء والقدر وأثره على زكاة القلب.

المطلب الخامس: الإيمان باليوم الآخر وأثره على زكاة القلب.

المبحث الرابع: الأسس التعبدية لزكاة القلب، وفيه مطالب.

المطلب الأول: التقرب إلى الله بالفرائض.

المطلب الثاني: التقرب إلى الله بالدعاء.

المطلب الثالث: التقرب إلى الله بأكل الحلال.

المطلب الرابع: التقرب إلى الله بالنوافل.

المطلب الخامس: مجاهدة النفس ومحاسبتها على ما سبق.

المبحث الخامس: من مظاهر زكاة القلب.

المبحث السادس: ثمرات زكاة القلب.

المبحث السابع: العوائق والموانع التي تعيق وتمنع القلب من هذه الزكاة.

التمهيد، وفيه المسائل الآتية.

المسألة الأولى: النصوص الدالة على زكاة القلب.

وردت نصوص في الكتاب والسنة تتحدث عن هذا الأمر، ومنها:

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٩].

وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦-٧].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۚ﴾ [النور: ٣٠].

والآيات في هذا الباب كثيرة.

وعن عَبْد اللَّهِ بْنَ مُعَاوِيَةَ الْغَاضِرِيَّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عز وجل وَحْدَهُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يُعْطِ الْهَرِمَةَ وَلَا الدَّرِنَةَ وَلَا الْمَرِيضَةَ وَلَكِنْ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوَالِكُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ

عز وجل لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهَا وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بَشَرِهَا، **وَزَكِّى نَفْسَهُ " ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَمَا تَزْكِيَةُ النَّفْسِ؟ فَقَالَ: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عز وجل مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»**[1].

المسألة الثانية: معنى زكاة القلب.

وأحسن ما يفسر به معنى زكاة القلب ما ورد من تفسيره في الحديث الذي سبق يقول ﷺ: " ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عز وجل وَحْدَهُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يُعْطِ الْهَرِمَةَ وَلَا الدَّرِنَةَ وَلَا الْمَرِيضَةَ وَلَكِنْ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوَالِكُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عز وجل لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهَا وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بَشَرِهَا، **وَزَكِّى نَفْسَهُ "، فَقَالَ رَجُلٌ: وَمَا تَزْكِيَةُ النَّفْسِ؟ فَقَالَ: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عز وجل مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»**.

وهذه مرتبة الإحسان التي قال عنها ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2]، فزكاة القلب تعني أن يستحضر مراقبة الله له في سره وعلنه، وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنى في مظاهر زكاة القلب.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذي البدن بما ينميه ويقومه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن.

و" الزكاة في اللغة " النماء والزيادة في الصلاح، يقال: زكا الشيء إذا نما في الصلاح، فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح ،كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (١/ ٣٣٤)ح(٥٥٥)، والبيهقي في السنن الكبير (٨/ ٥٠ ت التركي)ح(٧٣٥١)، وصحح إسناده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٣٨)ح(١٠٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٩) ح(٥٠)، ومسلم (١/ ٣٦) ح(٨).

كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا. و " الصدقة " لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار صار القلب يزكو بها وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب، قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب. وكذلك ترك المعاصي فإنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن ومثل الدغل في الزرع، فإذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن، وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغاً من تخليطاته حيث خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه، فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل..»[(١)].

ويقول ابن القيم رحمه الله في معنى زكاة القلب: «الباب الثامن في زكاة القلب.

الزكاة في اللغة: هي النماء والزيادة في الصلاح وكمال الشيء، يقال: زكا الشيء إذا نما، وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، فجمع بين الأمرين الطهارة والزكاة لتلازمهما؛ فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الدَّغَل في الزرع، وبمنزلة الخَبَث في الذهب والفضة والنحاس والحديد.

فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا مُعَوِّق ولا ممانع، فنما البدن، فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة، زكا ونما، وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفَّذ حكمه في رعيّته، فسمعت له وأطاعت، فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته»[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٦- ٩٧).

(٢) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (١/ ٧٤ ط عطاءات العلم).

المسألة الثالثة: هل بين زكاة النفس والقلب فرق؟

وفي بحثنا هذا لا فرق بين زكاة القلب والنفس، فكلاهما بمعنى واحد.

المبحث الأول: أهمية زكاة القلب.

تظهر أهمية زكاة القلب من خلال المحاور الآتية.

أولاً: يبنى على زكاة القلب وصلاحه زكاة الجسد وصلاحه، قال ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»(١).

ثانياً: طهارة القلب وزكاته من أسباب سلامته من الفتن والعقوبات في الدنيا والآخرة، كما ذكر الله تعالى عن اليهود وما عاقبهم الله به من الفتنة ولم يمكنهم من تطهير قلوبهم، بسبب ما فيها من الأمراض التي جلبت لهم تلك العقوبات، فيقول سبحانه عنهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٠) ح (٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩) ح (١٥٩٩).

ثالثاً: مما يدل على أهمية زكاة القلب أن القلوب موضع نظر الرب ﷻ، فلا بد من الحرص العظيم على زكاتها وسلامتها، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

رابعاً: النجاة يوم القيامة مرتبطة بزكاة القلب وسلامته، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

خامساً: الفلاح في الدنيا والآخرة مرتبط بزكاة القلب، كما أن الخسارة والخيبة في الدنيا والآخرة مرتبط بفساد القلب، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

سادساً: ومما يدل على أهمية زكاة القلب أن التلذذ بذكر الله وتلاوة كتابه لا يحصل إلا لمن سعى في تزكية قلبه، وقد جاء عن عثمان ﷺ: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام الله عز وجل »[1]، وقال بعض العارفين: "كيف يشبعون من كلام محبوبهم وهو غاية مطلوبهم؟!"[2].

ثامناً: إن النجاة في الآخرة والفوز بنعيم الجنة لمن زكى قلبه وحرص على سلامته، قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٥-٧٦].

تاسعاً: وبزكاة القلب يحصل العبد على لذة الإيمان وطعمه، قَالَ ﷺ: " ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عز وجل وَحْدَهُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص١٠٦) رقم(٦٨٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء(٧/ ٣٠٠).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٢٩١).

طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يُعْطِ الْهَرِمَةَ وَلَا الدَّرِنَةَ وَلَا الْمَرِيضَةَ وَلَكِنْ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوَالِكُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عز وجل لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهَا وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بَشَرِّهَا، وَزَكِّى نَفْسَهُ " ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَمَا تَزْكِيَةُ النَّفْسِ؟ فَقَالَ: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عز وجل مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»[1].

عاشراً: ومما يدل على أهمية زكاة القلوب أن الله تعالى جعل من أسباب بعثة نبيه صلى الله عليه وسلم تزكية قلوب العباد، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (١/ ٣٣٤)ح(٥٥٥)، والبيهقي في السنن الكبير (٨/ ٥٠ ت التركي)ح(٧٣٥١)، وصحح إسناده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٣٨)ح(١٠٤٦).

المبحث الثاني: قواعد مهمة في تزكية القلب.

توطئة.

ولا شك أن من أعظم ما ينبغي أن يعتنيَ به المسلم الذي يريد أن يزكي قلبه أن يحرص على منهج السلف في تزكية الأنفس والقلوب، والثبات على ذلك، مع كثرة المناهج التي انحرفت عنه.

أقول: الثبات على المنهج الحق منهجِ أهل السنة والجماعة توفيقٌ من الله لعبده، واصطفاء وهداية، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال تعالى عن منهج الأنبياء: ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾[الأنعام: ٨٧، ٨٨].

وقال تعالى لنبيه ﷺ بعد ذلك: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾[الأنعام: ٩٠].

ولأجل سلامة منهج تزكية القلب من الانحراف والخلل لا بد من مراعاة القواعد الآتية:

القاعدة الأولى: الاعتصام بالكتاب والسنة والرجوع والاحتكام إليهما في صغير الأمر وكبيره، والاقتصار في مصدر التلقي عليهما، وذلك يقوم على الأمور الآتية:

١- **الاعتقاد الجازم أنه لا يتحقق رضا الله تبارك وتعالى والفوز بجنته والنجاة من عذابه إلا بالإيمان بهما والعمل بما جاءا به، وما يترتب على هذا من وجوب أن يعيش المسلم حياته كلها اعتقادًا وعملًا وسلوكًا، مستمسكًا ومعتصمًا بهما، لا يزيغ عنهما ولا يتعدى حدودهما.**

ومن مستلزمات هذا أن يتحاكم إليهما عند التنازع والاختلاف، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[النساء: ٦٥].

ولقد تربى الصحابة على ذلك، فعاشوا لا يلتفتون إلى غير الكتاب والسنة، وهكذا تربى أتباعهم على منهجهم.

٢- **الاعتقاد الجازم بكمال الدين،** يقول تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًاۚ ﴾ [المائدة: ٣]، ويقول تعالى أيضًا: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ

﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

يقول ابن تيمية بعد ذكره لهذه الآيات وغيرها: "ومثل هذا في القرآن كثير، مما يبين الله فيه أن كتابه مبين للدين كله، موضح لسبيل الهدى، كاف لمن اتبعه، لا يحتاج معه إلى غيره يجب اتباعه دون اتباع غيره من السبل"(١).

٣- **التعظيم لنصوص الشرع والتسليم لها، والحذر من مخالفتها.**

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[النساء: ٦٥].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥١، ٥٢].

وقال تعالى محذرًا من حال أصحاب القلوب المنكوسة: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ * إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾

(١) درء تعارض العقل والنقل (١٠/ ٣٠٤).

وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢١-٢٥].

وقال تعالى في التحذير من مخالفة أمر رسوله ﷺ وعدم تعظيمه: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

ويقول ﷺ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابُ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»(٢).

قَالَ حُذَيْفَةُ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»(٣).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [الحجرات: ١]، فلا يقدم على قول رسول الله ﷺ قول أحد

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٨٩٠) ح (١٢١٨).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ١٧٢) ح (٣١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٦٦) ح (٢٩٣٧).

(٣) أخرجه مسلم(١/ ١٢٨) ح (١٤٤).

مهما كانت مكانته، كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء؛ أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!"(١).

ونقل ابن بطة عن الإمام أحمد رحمه الله قوله: "نظرت في المصحف فوجدت فيه طاعة رسول الله ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعًا"، ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وجعل يكررها، ويقول: "وما الفتنة؟ الشرك، لعله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ، فيزيغ فيهلكه"، وجعل يتلو هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥](٢).

ويقول الإمام ابن بطة رحمه الله: "فإذا سمع أحدكم حديثًا عن رسول الله ﷺ رواه العلماء، واحتج به الأئمة العقلاء، فلا يعارضه برأيه، وهوى نفسه، فيصيبه ما توعده الله ﷻ به، فإنه قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وهل تدري ما الفتنة هاهنا؟ هي والله الشرك بالله العظيم، والكفر بعد الإيمان، فإن الله ﷻ قال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، يقول: حتى لا يكون شرك؛ فإنه قال تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ﴾ [البقرة: ١٩١]، يقول: الشرك بالله أشد من قتلكم لهم، ثم قال ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند بنحوه (٥/ ٢٢٨) برقم (٣١٢١)، وجامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٢١٠) رقم (٢٣٧٨)، والفقيه والمتفقه (١/ ٣٧٧)، وذكره بهذا اللفظ شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢١٥).

(٢) الإبانة الكبرى لابن بطة (١/ ٢٦١).

مَصِيرًا﴾[النساء: ١١٥]. أعاذنا الله وإياكم من هذه الأهوال، ووفقنا وإياكم لصالح الأعمال"[١].

٤- الأدب مع نصوص الكتاب والسنة، وذلك بأن تُراعى ألفاظهما، وأن لا تستخدم الألفاظ والمصطلحات الموهمة غير الشرعية.

ونقل شيخ الإسلام رحمه الله عن الإمام أحمد رحمه الله قوله: "لا يُوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو بما وصفه به رسوله ﷺ، لا يتجاوز القرآن والحديث"[٢].

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: «الألفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة علينا أن نتبع ما دلت عليه مثل لفظ الإيمان والبر والتقوى والصدق والعدل والإحسان والصبر والشكر والتوكل والخوف والرجاء والحب لله والطاعة لله وللرسول وبر الوالدين والوفاء بالعهد ونحو ذلك مما يتضمن ذكر ما أحبه الله ورسوله من القلب والبدن، فهذه الأمور التي يحبها الله ورسوله هي الطريق الموصل إلى الله، مع ترك ما نهى الله عنه ورسوله: كالكفر والنفاق والكذب والإثم والعدوان والظلم والجزع والهلع والشرك والبخل والجبن وقسوة القلب والغدر وقطيعة الرحم ونحو ذلك.

فعلى كل مسلم أن ينظر فيما أمر الله به ورسوله فيفعله، وما نهى الله عنه ورسوله فيتركه، هذا هو طريق الله وسبيله ودينه الصراط المستقيم»[٣].

---

(١) الإبانة الكبرى (١/ ٢٦٧).

(٢) الفتوى الحموية الكبرى (٢٦٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٦).

ويقول أيضاً: «والألفاظ الشرعية لها حرمة، ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما أثبته وينفي ما نفاه من المعاني، فإنه يجب علينا أن نصدقه في كل ما أخبر، ونطيعه في كل ما أوجب وأمر»[1].

وذلك يستدعي ممن يريد زكاة قلبه بأن يراعي ألفاظ نصوص الكتاب والسنة في مجال التزكية، ويحذر من المصطلحات التي لم ترد في الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح في القرون المفضلة، فليحذر من مصطلحات تزكية النفوس والقلوب المبنية على المناهج المنحرفة في التزكية كمناهج أهل التصوف، والمناهج المستوردة من وثنيات الشرق أو الغرب.

«إن كان ثمت ألفاظ مجملة في باب الاعتقاد، كالحيز والجوهر والجسم.. الخ، فذلك في باب السلوك توجد ألفاظ مجملة كالتصوف والفناء والفقر ونحوه.

وقد تقرر أن موقف السلف الصالح من الألفاظ المجملة في الاعتقاد هو التفصيل، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا بين ما أثبت بها، فهو ثابت، وما نُفي بها، فهو منفي، فهم ينظرون في مقصود قائلها فإن كان معنى صحيحاً قُبِل، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص الشرعية دون الألفاظ المجملة، إلا عند الحاجة، مع قرائن تبين المراد والحاجة، مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها.

يقول ابن تيمية – موضحاً الموقف الصحيح من هذه الألفاظ:

" وأما الألفاظ التي ليست في الكتاب والسنة ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها، فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده، فإن أراد بها معنى يوافق خبر الرسول اقر به، وإن أراد بها معنى يخالف خبر الرسول أنكره.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ١١٣- ١١٤).

ثم التعبير عن تلك المعاني إن كان في ألفاظه اشتباه أو إجمال عبر بغيرها أو بين مراده بها، بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي، فإن كثيراً من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ومعان مشتبهة"[1]»[2].

(١) مجموع الفتاوى(١٢/١١٤).

(٢) معالم في السلوك وتزكية النفوس (ص٣١-٣٢).

القاعدة الثانية: وجوب تقديم الشرع على العقل عند توهم التعارض، وإلا ففي الحقيقة والواقع لا يمكن أن يتعارض النقل الصحيح مع العقل الصريح، ولقد كان تقديم ما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على ما في غيرهما من معقول أو غيره يعارضها من مسلمات منهج السلف رحمهم الله تعالى.

القاعدة الثالثة: الاستدلال بالحديث الصحيح في مجال التزكية، والحذر من الاستدلال بالأحاديث الضعيفة والموضوعة.

القاعدة الرابعة: أن الصحابة أعلم الناس بعد الرسول ﷺ بالعقيدة والتزكية؛ لذلك فأقوالهم وتفاسيرهم للنصوص حجة؛ لأنهم ﷺ قد اكتمل فيهم الفهم والمعرفة لأصول الدين التي دل عليها كتاب الله المنزل وسنة رسوله ﷺ.

والصحابة تميزوا بعدة ميزات، أهمها:

أ) أنهم شاهدوا التنزيل، وعاشوا مع النبي ﷺ وهو يتلقى هذا الوحي من ربه الذي ينزل عليه مفرقًا حسب الوقائع والأحداث، فعاصروها جميعًا، واحدة فواحدة، فكيف لا يكونون وهم كذلك أعلم الناس بالتنزيل وأسباب نزوله إن كانت له أسباب، وأعلم الناس بمراد الله ومراد رسوله ﷺ؟!

وقال ابن القيم رحمه الله عن مكانة ما يراه الصحابة رضوان الله عليهم: "وحقيق بمن كانت آراؤهم بهذه المنزلة أن يكون رأيهم لنا خيرًا من رأينا لأنفسنا، وكيف لا وهو الرأي الصادر من قلوب ممتلئة نورًا وإيمانًا وحكمة وعلمًا ومعرفة وفهمًا عن الله ورسوله ونصيحة للأمة، وقلوبهم على قلب نبيهم، ولا واسطة بينهم وبينه، وهم ينقلون العلم والإيمان من مشكاة النبوة غضًّا طريًّا لم يَشُبْهُ إشكال، ولم يَشُبْهُ خلاف، ولم تدنسه معارضة؟!"[1].

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٦٤-٦٥).

ب) من المعلوم أن حواري الرسل وصحابتهم الذين اتبعوهم وآمنوا بهم هم أكثر الناس فهمًا لرسالتهم وما يتعلق بها من أحكام، سواء في العقيدة أو الشريعة؛ فهم العارفون بدقائقها المدركون لحقائقها، وهم أكمل الناس علمًا وعملًا، ولا يكون من بعدهم أكمل منهم في شيء من ذلك.

ج) كان الصحابة يسألون رسول الله ﷺ عما يشكل عليهم، وهذا أمر مشهور عنهم رضي الله عنهم.

القاعدة الخامسة: الحذر من مسالك أهل البدع في التزكية، ومنه الحذر من مسالك أهل الكلام والتصوف الذي انحرفوا فيه عن منهج السلف في التزكية، ويدخل في ذلك أيضاً الحذر من مجالستهم، وللسلف منهج واضح في التحذير من أهل الأهواء، ودونك تفصيل القول في ذلك:

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ»[1]، ولذا كان من منهج السلف رحمهم الله الحذر من مجالسة أهل البدع والأهواء والتحذير من ذلك أشد التحذير؛ لأن القلوب ضعيفة، والشبه خطافة، من تعرض لها تعلقت بقلبه وأفسدته.

وهذه المجالسة في زمننا لا يلزم منها حضور مجالسهم أو قراءة كتبهم؛ لأن مفهوم المجالسة تغير في زمننا بسبب ما يسمى بوسائل التواصل الاجتماعي، ومتابعة نتاجهم الفكري الموجود على شبكة الإنترنت، أو المتابعة التي تتم من خلال البث الفضائي.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٨٩) ح (١٤٣)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٢٨١)، ح (٨٠)، وقال في مجمع الزوائد (١/ ١٨٧) ح (٨٨٦): "رواه البزار وأحمد وأبو يعلى، ورجاله موثقون"، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ١٠٧) ح (٢٣٩)، وقال محقق مسند أحمد (١/ ٢٨٩): "سنده قوي".

فيستطيع الواحد في هذا الزمن أن يجالس أهل البدع والأهواء ويرى ويسمع دروسهم وخطبهم ومحاضرتهم ويقرأ كتبهم وهو في بيته، وبينه وبينهم المسافات الشاسعة، وأضف إلى هذا ضعف العلم الشرعي وضعف التمسك بالدين عند المتلقي، وقدرة أصحاب الباطل على المحاجة وتلبيس الحق بالباطل؛ ولذا كان الخطر عظيمًا والخطب جليلًا، وحينها نعرف لماذا يحذر السلف من مجالسة أهل الأهواء، ويحرصون على عدم سماع كلامهم مع قوتهم العلمية، وتمكن الدين من قلوبهم، وقدرتهم على المحاجة والمجادلة، إلا أن السلامة لا يعدلها شيء، والقلوب ضعيفة، والشبه خطافة، والشياطين حاضرة تمد أصحابها بزخرف القول الذي قال الله عنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[الأنعام: ١١٢].

قال إبراهيم النخعي رحمه الله: "لا تجالسوا أهل الأهواء؛ فإن مجالستهم تذهب بنور الإيمان من القلوب، وتسلب محاسن الوجوه، وتورث البِغْضَة في قلوب المؤمنين"(١).

وذكر الذهبي رحمه الله: "عن سفيان الثوري عليه رحمة الله: من أصغى بسمعه إلى صاحب بدعة، وهو يعلم، خرج من عصمة الله، ووكل إلى نفسه.

وعنه: من سمع ببدعة فلا يحكها لجلسائه، لا يلقها في قلوبهم.

قلت: أكثر أئمة السلف على هذا التحذير، يرون أن القلوب ضعيفة، والشبه خطافة"(٢).

---

(١) الإبانة الكبرى (٢/ ٤٣٩).

والبِغْضَة أي: لا تحبه قلوب المؤمنين. ينظر: الصحاح (٣/ ١٠٦٦-١٠٦٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٦١).

ومعنى كلام الإمام الذهبي رحمه الله: أن السلف يحذرون من سماع كلام أهل البدع؛ لأن القلوب ضعيفة سريعة التأثر بما تسمع، والشبه تخطف القلوب، وتميل بها عن طريق الهدى، ويزينها الشيطان فتزل القدم بعد ثبوتها.

وذكر العلماء رحمهم الله[1] آثارًا عن السلف في التحذير من مجالسة أهل الأهواء لخطورتها على القلوب، ومن ذلك: "قال أبو قلابة رحمه الله: لا تجالسوا أهل الأهواء -أو قال: أصحاب الخصومات-؛ فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون.

ودخل رجلان من أصحاب الأهواء على مُحَمَّد بن سيرين، فقالا: يا أبا بكر، نحدثك بحديث؟ قال: لا، قالا: فنقرأ عليك آية؟ قال: لا، لتقومان عني، أو لأقومنَّهْ، فقاما. فقال بعض القوم: يا أبا بكر، وما عليك أن يقرأ عليك آية؟!... وقال: خشيت أن يقرآ آية فيحرفانها، فيقر ذلك في قلبي.

وقال رجل من أهل البدع لأيوب: يا أبا بكر، أسألك عن كلمة؟ فولى، وهو يقول بيده: لا، ولا نصف كلمة.

وقال ابن طاووس لابن له يكلمه رجل من أهل البدع: يا بني، أدخل أصبعيك في أذنيك حتى لا تسمع ما يقول، ثم قال: اشدد اشدد.

وقال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقل.

وكان الحسن يقول: شر داء خالط قلبًا -يعني: الأهواء-.

---

(١) ينظر: الشريعة(١/٤٣٥-٤٤٠)، الإبانة الكبرى(٥/٢٥٤٤-٢٥٤٦)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة(١/ ١٠١، ١٥٠- ١٥١).

وقال حذيفة: اتقوا الله، وخذوا طريق من كان قبلكم، والله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن تركتموه يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا -أو قال: مبينًا-"[1].

قال رجل لابن سيرين: "إن فلانًا يريد أن يأتيك، ولا يتكلم بشيء، قال: قل لفلان: لا، ما يأتيني، فإن قلب ابن آدم ضعيف، وإني أخاف أن أسمع منه كلمة، فلا يرجع قلبي إلى ما كان"[2].

ويروي الآجري بسنده عن مهدي بن ميمون قال: "سمعت محمدًا -يعني ابن سيرين- وماراه رجل في شيء، فقال مُحَمَّد: إني أعلم ما تريد، وأنا أعلم بالمراء منك، ولكني لا أماريك"[3].

وقال الآجري رحمه الله أيضًا في وصاياه القيمة: "ألم تسمع -رحمك الله- إلى ما تقدم ذكرنا له من قول أبي قلابة: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في الضلالة، أو يلبسوا عليكم في الدين بعض ما لبس عليهم؟! أوَلم تسمع إلى قول الحسن وقد سأله عن مسألة فقال: ألا تناظرني في الدين؟! فقال له الحسن: أما أنا فقد أبصرت ديني، فإن كنت أنت أضللت دينك فالتمسه؟! أوَلم تسمع إلى قول عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقل؟!"[4].

وقال أيضًا معلقًا على تلك الأخبار السابقة من أقوال الأئمة في النهي عن مجالسة أهل الأهواء: "فمن اقتدى بهؤلاء الأئمة سلم له دينه إن شاء الله تعالى، فإن قال قائل: فإن اضطرني في الأمر وقتًا من الأوقات إلى مناظرتهم، وإثبات الحجة عليهم، ألا أناظرهم؟ قيل

---

(١) كل هذه الآثار عن السلف ذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٨٥).

(٢) الإبانة الكبرى (٢/ ٤٤٦).

(٣) الشريعة للآجري (١/ ٤٥٣).

(٤) الشريعة للآجري (١/ ٤٥٣).

له: الاضطرار إنما يكون مع إمام له مذهب سوء، فيمتحن الناس ويدعوهم إلى مذهبه، كفعل من مضى في وقت أحمد بن حنبل: ثلاثة خلفاء امتحنوا الناس، ودعوهم إلى مذهبهم السوء، فلم يجد العلماء بدًّا من الذب عن الدين، وأرادوا بذلك معرفة العامة الحق من الباطل، فناظروهم ضرورة لا اختيارًا، فأثبت الله تعالى الحق مع أحمد بن حنبل ومن كان على طريقته، وأذل الله تعالى المعتزلة وفضحهم، وعرفت العامة أن الحق ما كان عليه أحمد ومن تابعه إلى يوم القيامة، أرجو أن يعيذ الله الكريم أهل العلم من أهل السنة والجماعة من محنة تكون أبدًا"[1].

وقال رحمه الله إضافة إلى ما سبق: "وبعد هذا نأمر بحفظ السنن عن رسول الله ﷺ، وسنن أصحابه ﷺ، والتابعين لهم بإحسان، وقول أئمة المسلمين مثل مالك بن أنس، والأوزاعي، وسفيان الثوري، وابن المبارك وأمثالهم، والشافعي ﷺ وأحمد بن حنبل، والقاسم بن سلام، ومن كان على طريقة هؤلاء من العلماء، وينبذ من سواهم، ولا نناظر، ولا نجادل ولا نخاصم، وإذا لقي صاحب بدعة في طريق أخذ في غيره، وإن حضر مجلسًا هو فيه قام عنه، هكذا أدبنا من مضى من سلفنا"[2].

القاعدة السادسة: التسليم للدليل، فلم يكونوا يتلقَّون النصوص ومعهم أصول عقلية يحاكمون النصوص إليها، كما فعل الفلاسفة والمعتزلة وأهل الكلام وأهل التصوف الذين وضعوا أصولًا عقلية، ثم لما جاءوا إلى القرآن والسنة وما فيهما من دلالات في الاعتقاد والتزكية، نظروا فما وجدوه موافقًا لتلك الأصول العقلية أخذوا به، وما وجدوه مخالفًا لشيء منها أولوه أو أنكروا الاحتجاج به.

---

(١) الشريعة للآجري (١/ ٤٥٣).

(٢) الشريعة للآجري (١/ ٤٥٣).

القاعدة السابعة: الرجوع إلى كل ما ثبت من النصوص الواردة في مسألة معينة، وعدم الاقتصار على بعضها دون البعض الآخر، وهذا ناشئ من أنهم لا يفرِّقون بين النصوص، وليس لديهم أصول عقلية متقررة سلفًا عندهم، ليأخذوا من النصوص ما وافقها ويدعوا ما خالفها، كما وقع فيه أهل الأهواء كلهم.

المبحث الثالث: الأسس العقدية لزكاة القلب، وفيه مطالب.

لا شكَّ أن الأسس العقدية لصلاح القلب وزكاته هي من أهم ما ينبغي الاجتهاد فيه، والحرص عليه، فلن تصلح أعمال القلب إلا إذا بنيت على عقيدة صحيحة سليمة من شوائب الشرك، بني فيها الاعتقاد بأركانه الستة على اليقين والإيمان بالغيب، توحيد سلم من الشرك وشوائبه، وإيمان بالملائكة والرسل والكتب واليوم الآخر وبالقضاء والقدر، كل ذلك وفق معتقد السلف أهل السنة والجماعة، وهذه إشارات إلى ذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول: الشهادتان وأثرهما على زكاة القلب[١].

وكلمة التوحيد ليست مجرد كلمة تردد فقط باللسان، والقلب خال من لوازمها ومقتضياتها، بل هي قول وعمل، ولا تنفع من يقولها إلا إذا أتى بشروطها وحققها في قلبه، وسلم قلبه مما ينقضها أو يضعفها، ولذا أثر عن الحسن وهب بن منبه رحمهما الله ما يدل على ذلك.

قال الحسن للفرزدق –وهو يدفن امرأته–: "ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة. قال الحسن: نعم العُدة إن لـ "لا إله إلا الله" شروطاً؛ فإياك وقذف المحصنة"[٢].

وقيل للحسن: إن ناسًا يَقُولُونَ: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة؟ فَقَالَ: "من قال: لا إله إلا الله، فأدّى حقها وفرضها دخل الجنة"[٣].

وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: "بلى، ولكن ليس مفتاح إلا وله أسنانُ؛ فإن جئت بمفتاح له أسنان فُتح لك، وإلا لم يُفتَح لك"[٤].

---

(١) من أراد أن يتوسع في هذا الموضوع المهم جداً فليراجع كتابي: (أثر عمل القلب على الشهادتين) على الشبكة، وفق الله الجميع.

(٢)كلمة الإخلاص وتحقيق معناها – ضمن رسائل ابن رجب (٣/ ٤٧).

(٣)كلمة الإخلاص وتحقيق معناها – ضمن رسائل ابن رجب (٣/ ٤٧)

(٤)كلمة الإخلاص وتحقيق معناها – ضمن رسائل ابن رجب (٣/ ٤٧).

وأستنبط العلماء باستقراء النصوص شروط لا إله إلا الله التي لا بد من تحقيقها في قلب من يقولها ويظهر أثرها على جوارحه، ودونك ملخصها.

الشرط الأول: العلم بمعناه نفياً وإثباتاً المنافي للجهل.

الشرط الثاني: الإخلاص المنافي للشرك.

الشرط الثالث: اليقين المنافي للشك.

الشرط الرابع: القبول المنافي للرد.

الشرط الخامس: الانقياد المنافي للترك.

الشرط السادس: الصدق المنافي للكذب.

الشرط السابع: المحبة المنافية للبغض والكره.

الشرط الثامن: الكفر بما يعبد من دون الله.

وكذلك شهادة أن مُحَمَّداً رسول مثل شهادة أن لا إله إلا الله ليست كلمة تردد بل لا بد لها من مقتضيات ولوازم إذا لم تحقق في القلب لا تنفع من يقولها، يقول ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «وعبارات السلف في (شهد) – تدور على الحكم، والقضاء، والإعلام، والبيان، والإخبار. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها: فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه. فلها أربع مراتب:

فأول مراتبها: علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته.

وثانيها: تكلمه بذلك، وإن لم يعلم به غيره، بل يتكلم بها مع نفسه ويذكرها وينطق بها أو يكتبها.

وثالثها: أن يعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع: علمه سبحانه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه، وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به»[1].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية – ت الأرناؤوط (١/ ٤٤).

وهذه المراتب الأربع تنطبق تماماً على الشهادة الثانية: وأن مُحَمَّداً رسول الله.

وقال القاضي عياض رحمه الله: «والإيمان به ﷺ هو تصديق نبوته ورسالة الله له وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا اجتمع التصديق به بالقلب والنطق بالشهادة بذلك باللسان تم الإيمان به والتصديق له»[١].

ويقول الشيخ سليمان بن عبد الله: «ولا ريب أنه لو قالها[٢] أحد من المشركين ونطق أيضًا بشهادة أن مُحَمَّداً رسول الله ولم يعرف معنى الإله ولا معنى الرسول، وصلى وصام وحج، ولا يدري ما ذلك إلا أنه رأى الناس يفعلونه فتابعهم ولم يفعل شيئًا من الشرك، فإنه لا يشك أحد في عدم إسلامه.

وقد أفتى بذلك فقهاء المغرب كلهم في أول القرن الحادي عشر أو قبله في شخص كان كذلك كما ذكره صاحب " الدر الثمين في شرح المرشد المعين [ميارة] " من المالكية، ثم قال شارحه: وهذا الذي أفتوا به جلي في غاية الجلاء، لا يمكن أن يختلف فيه اثنان انتهى[٣]. ولا ريب أن عباد القبور أشد من هذا؟ لأنهم اعتقدوا الإلهية في أرباب متفرقين»[٤].

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى – وحاشية الشمني (٢/ ٣).

(٢) يقصد: لا إله إلا الله.

(٣) ينظر: الدر الثمين والمورد المعين (ص٨٣).

(٤) تيسير العزيز الحميد (ص٥٨).

أثر الشهادتين على زكاة القلب.

ويمكن أن نجمل أثر الشهادتين على زكاة القلب في النقاط الآتية:

١- تقدير الله حق قدره.

٢- تحقيق التوحيد وسلامة القلب من الشرك جليه وخفيه.

٣- معرفة الرسول ﷺ حق المعرفة، ومعرفة حقوقه، والقيام بها خير قيام، والحذر من الغلو فيه ورفعه فوق مقام العبودية لله والنبوة والرسالة.

٤- الحرص على أعمال القلوب من الإخلاص، والمحبة، والقبول، واليقين، والصدق، والتقوى، والانقياد، والخوف والخشية، وغير ذلك من أعمال القلب التي لها أعظم الأثر في زكاة القلب.

٥- سلامة القلب من أمراض الكبر، والنفاق، والحسد، والشحناء، والعجب، والرياء، وحب السمعة، وغير ذلك من الآفات التي تمنع زكاة القلب.

٦- حرص القلب على متابعة هدي النبي ﷺ في كل أمور الدين.

٧- سلامة القلب من نواقض الشهادتين القولية والعملية والاعتقادية[١].

---

(١) ينظر في النواقض الكتب الآتية:

١- نواقض الإيمان القولية والعملية.

٢- نواقض الإيمان الاعتقادية.

٣- حقيقة الإيمان ونواقضه.

المطلب الثاني: التوحيد وأثره على زكاة القلب، وفيه عدة مسائل.

توحيد الله تعالى من أعظم أسباب زكاة القلب، وله أكبر الأثر على سلامته وصلاحه.

المسألة الأولى: تعريف التوحيد.

التوحيد لغة: من وحّد يوحّد توحيدًا، والتوحيد الإيمان بالله وحده لا شريك له، والله الواحد الأحد ذو الوحدانية، وقال ابن فارس رحمه الله: "الواو والحاء والدال: أصل واحد يدل على الانفراد"(١).

والتوحيد شرعًا: عرفه الشيخ ابن عثيمين فقال رحمه الله: "إفراد الله ﷻ بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات"(٢).

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله بن مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله: "وسمي دين الإسلام توحيدًا؛ لأن مبناه على أن الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في إلهيته وعبادته لا ند له، وإلى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا به من عند الله، وهي متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر"(٣).

وعرفه الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله بقوله: "التوحيد هو: اعتقاد أن الله جل وعلا واحد في ربوبيته لا شريك له، واحد في إلهيته لا ند له، واحد في أسمائه وصفاته لا مِثْل له ﷻ، قال جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وذلك يشمل أنواع التوحيد جميعًا، فالتوحيد إذن: هو اعتقاد أن الله واحد في هذه الثلاثة أشياء"(٤).

---

(١) مقاييس اللغة (٦/ ٩٠)، ينظر: العين (٣/ ٢٨١)، معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ٢٤٠٩).

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٩/ ١).

(٣) تيسير العزيز الحميد (١٧).

(٤) التمهيد لشرح كتاب التوحيد (٦٩).

المسألة الثانية: أقسام التوحيد وفيه عدة فروع.

ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام وهي:

الفرع الأول: توحيد الألوهية.

أولاً: معناه.

الألوهية من أله يأله ألوهة فهو مألوه أي: معبود، يقول ابن فارس: "الهمزة واللام والهاء أصل واحد، وهو التعبد. فالإله الله تعالى"[(١)]، وأصله إله على فِعَال بمعنى: مفعول؛ لأنه مألوه أي: معبود، ويقال: تأله الرجل: إذا تعبد[(٢)].

ومعنى توحيد الألوهية في الشرع: عرفه الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله بقوله: "هو إفراد الله بالعبادة"[(٣)].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله: "هو إفراد الله تعالى بأنواع العبادة الباطنة والظاهرة"[(٤)].

ثانياً: الأدلة عليه.

وهذا النوع من التوحيد هو موضوع دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم، وهو موضع النزاع بين الأنبياء وأممهم، وهذه بعض الأدلة عليه:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

---

(١) مقاييس اللغة (١/ ١٢٧).

(٢) ينظر: الصحاح (٦/ ٢٢٢٣)، مقاييس اللغة (١/ ١٢٧)، المعجم الوسيط (١/ ٢٥) مادة (أله).

(٣) ثلاثة الأصول وشروط الصلاة والقواعد الأربع (٨).

(٤) كتاب التوحيد وقرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين (١١).

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وقالها صالح وهود وشعيب وكل نبي لقومه.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥].

ومن السنة عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رضي الله عنه عَلَى اليَمَنِ، قَالَ: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ»[(١)]، وفسر في الرواية الثانية عبادة الله بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى اليَمَنِ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ...» الحديث[(٢)].

وفي الرواية الثالثة: أن يوحدوا الله، عن ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى...» الحديث[(٣)].

قال ابن القيم رحمه الله: "ولهذا كان الصحيح: أن أول واجب يجب على المكلف: شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك، كما هي أقوال لأرباب

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ١١٩) ح (١٤٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ١٢٨) ح (١٤٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٩/ ١١٤) ح (٧٣٧٢).

الكلام المذموم، فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1]، فهو أول واجب، وآخر واجب، فالتوحيد أول الأمر وآخره"[2].

الفرع الثاني: توحيد الربوبية.

أولاً: معناه.

الربوبية من الرب، والرب في اللغة: يطلق على المالك، والسيد، والمدبر، والمربي، والقيّم، والمنعم، فرب كل شيء: مالكه، والربُّ: اسم من أسماء الله ﷻ، ولا يقال في غيره إلا على سبيل الإضافة[3].

وعرف العلماء توحيد الربوبية في الاصطلاح بعدة تعريفات، منها:

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله: "هو: الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت النافع الضار المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء، ليس له في ذلك شريك"[4].

وقال السعدي رحمه الله: "بأن يعتقد العبد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير، الذي ربى جميع الخلق بالنعم، وربى خواص خلقه -وهم الأنبياء وأتباعهم- بالعقائد الصحيحة

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ١٩٠) ح (٣١١٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١١٠٥) ح (٦٤٧٩)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لسنن أبي داود (٥/ ٣٤) ح (٣١١٦): "حديث صحيح".

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤١٢).

(٣) ينظر: الصحاح (١/ ١٣٠)، لسان العرب (١/ ٣٩٩)، المعجم الوسيط (١/ ٣٢١) مادة (ربب).

(٤) تيسير العزيز الحميد (١٧).

والأخلاق الجميلة والعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وهذه هي التربية النافعة للقلوب والأرواح المثمرة لسعادة الدارين"[1].

وقال الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله: "فأما توحيد الربوبية: فمعناه توحيد الله بأفعاله. وأفعال الله كثيرة، منها: الخلق، والرّزْق، والإحياء، والإماتة، وتدبير الملك، والنفع، والضُّر، والشفاء، والإجارة كما قال تعالى في التنزيل: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وإجابة دعوة المضطر، وإجابة دعوة الداعي، ونحو ذلك من أفراد الربوبية، فالمتفرد بذلك على الكمال هو الله جل وعلا، فتوحيد الربوبية: هو توحيد الله بأفعاله سبحانه"[2].

ثانياً: الأدلة عليه.

قال تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[يونس: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[الذاريات: ٥٨].

---

(١) القول السديد (١٩).

(٢) التمهيد لشرح كتاب التوحيد (٦).

الفرع الثالث: توحيد الأسماء والصفات.

أولاً: معناه.

عرفه شيخ الإسلام رحمه الله بقوله: "ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف وتعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل. فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه، ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين؛ بل هو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١]، ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله"(١).

وقال الإمام أحمد رحمه الله: "لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، لا يتجاوز القرآن والحديث"(٢).

وقال السعدي رحمه الله: "وهو اعتقاد انفراد الرب ﷻ بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلالة والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات، ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله، من غير نفي لشيء منها، ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب، وعن كل ما ينافي كماله"(٣).

ثانياً: الأدلة عليه.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٩٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٦).

(٣) القول السديد شرح كتاب التوحيد (١٨-١٩).

وقال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

والآيات في ذلك كثيرة.

المسألة الثالثة: أثر التوحيد على زكاة القلب:

للتوحيد أثر عظيم على القلوب، فكلما قوي توحيد العبد أثمر في قلبه ثمرات جليلة، وعاد ذلك على زكاة القلب بآثار مباركة عظيمة، ومن ذلك:

١- توحيد الله يغرس في قلب العبد تقدير الله حق قدره، وإن من الدلائل العظيمة على صدق العبد في تقديره لربه، حرصه الشديد على سلامة عقيدة التوحيد من شوائب الشرك، واهتمامه بها اهتماماً عظيماً، وذلك سيثمر له ثمرات عظيمة في الدنيا وفي الآخرة، ومنها:

- **سلامة إيمان العبد من الشرك، سبب الأمن في الدنيا والآخرة، والاهتداء التام في كل الأمور**، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، والظلم هنا هو ضد التوحيد، وهو الإشراك بالله كما فسره النبي ﷺ: عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ {يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}»[(١)].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره للآية السابقة[(٢)]: "أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك، له، ولم يشركوا به شيئًا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٨ ط السلطانية)ح(٦٩٣٧).

(٢) قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والآخرة"[1]، فبالتوحيد يحصل الأمن والاهتداء التام في الدنيا والآخرة، وبالشرك تصرف الهداية عن العبد، ويذهب الأمن ويحصل الخلل فيه في الدنيا وفي الآخرة.

- **سلامة العبد من الشرك، من أعظم الدلائل على تقدير الله حق قدره.**

ولهذا نزه الله نفسه عن الشرك في خاتمة الآية التي تحدث فيها عن عدم تقديرهم لله، فقال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر: ٦٧].

وذكر سبحانه وتعالى في بيان حال المشرك مع الله في شدة ضعفه وضعف من يشرك به من دون الله، ثم ختم ببيان عدم تقديرهم لله بسبب وقوعهم في الشرك، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

- **ومن علامة تقدير العبد لربه حق قدره سده لكل ذرائع الشرك والطرق الموصلة إليه.** ولأهمية هذا الأمر عقد الإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب بابين في كتاب التوحيد سمى الأول: **باب: ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك.**

وسمى الثاني: باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك.

وذكر في الباب الأول النصوص الآتية:

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَدْخُلُ فِيهَا، فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ.

وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيداً، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً؛ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَمَا كُنْتُمْ» رَوَاهُ فِي «المُخْتَارَةِ»

وذكر في الباب الثاني النصوص الآتية:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ ﷺ قَالَ: «انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: السَّيِّدُ اللَّهُ، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، فَقَالَ: قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ: «أَنَّ نَاساً قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا! وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا! فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عز وجل» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

قال السعدي رحمه الله: «والفرق بين البابين أن الأول فيه حماية التوحيد بسد الطرق الفعلية، وهذا الباب فيه حمايته وسده بالتأدب والتحفظ بالأقوال، فكل قول يفضي إلى الغلو الذي يخشى منه الوقوع في الشرك، فإنه يتعين اجتنابه ولا يتم التوحيد إلا بتركه»[1].

---

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد ط النفائس (ص١٨٩).

وكلما زاد تقدير العبد لربه حرص على حماية توحيده وسده لكل أبواب الشرك وطرقه الموصلة إليه، وخوفه الشديد على توحيده من كل ما يخدش في صفائه ونقائه.

٢- **ومن آثار التوحيد على زكاة القلب طهارة القلب من الخوف من غير الله،** يقول ابن القيم رحمه الله: "فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله تعالى، بل يفرد الله بالمخافة، وقد أمَّنه منه، وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد الله محبة وخشية وإنابة وتوكلًا واشتغالًا به عن غيره، فيرى أن إعمالَه فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا(١)، فإن كان مؤمنًا فالله يدافع عنه ولا بد، وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه"(٢).

٣- **التوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، وعلى حسب قوته وكماله يكون انشراح صدر صاحبه،** قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه، ومنها: النور الذي يقذفه الله في قلب العبد، وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصدر ويوسعه ويفرح القلب، فإذا فقد هذا النور من قلب العبد ضاق وحرج، وصار في أضيق سجن وأصعبه(٣).

---

(١) يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨].

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٥).

(٣) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد(٢/ ٢٢-٢٣).

٤- **التوحيد مع اعتراف العبد بظلمه وذنبه من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله ﷻ في قضاء الحوائج**، ولذا جاء عن النبي ﷺ في دعوة ذي النون قوله: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ»(١).

يقول ابن القيم رحمه الله: "وأما دعوة ذي النون فإن فيها من كمال التوحيد والتنزيه للرب تعالى واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج"(٢).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٦٥) ح (١٤٦٢)، والترمذي (٥/ ٥٢٩) ح (٣٥٠٥)، والحاكم (٢/ ٦٣٧) ح (٤١٢١)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٣٧) ح (٣٣٨٣).

(٢) زاد المعاد (٤/ ١٩٠).

المطلب الثالث: الإيمان بالملائكة والكتب والرسل وأثره على زكاة القلب، وفيه مسألتان.

المسألة الأولى: معناه.

الإيمان الجازم الذي لا شك فيه بالملائكة والكتب والرسل من حيث الإجمال والتفصيل.

قال الشيخ ابن باز رحمه الله في بيان معتقد أهل السنة والجماعة في الملائكة والكتب والرسل: "وأما الإيمان بالملائكة فيتضمن الإيمان بهم إجمالًا وتفصيلًا، فيؤمن المسلم بأن لله ملائكة خلقهم لطاعته، ووصفهم بأنهم عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وهم أصناف كثيرة؛ منهم الموكلون بحمل العرش، ومنهم خزنة الجنة والنار، ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد، ونؤمن على سبيل التفصيل بمن سمى الله ورسوله منهم، كجبريل، وميكائيل، ومالك خازن النار، وإسرافيل الموكل بالنفخ في الصور، وقد جاء ذكره في أحاديث صحيحة(١).

وقد ثبت في الصحيح عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» خرجه مسلم في صحيحه(٢).

---

(١) صح في ذكر إسرافيل ما أخرجه مسلم من حديث عائشة ﵂، في وصف ما يقوله ﷺ إذا قام من الليل (١/ ٥٣٤) ح (٧٧٠) ولفظه: قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: «اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

(٢) (٤/ ٢٢٩٤) ح (٢٩٩٦).

وهكذا الإيمان بالكتب، يجب الإيمان إجمالًا بأن الله ﷻ أنزل كتبًا على أنبيائه ورسله لبيان حقه والدعوة إليه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

ونؤمن على سبيل التفصيل بما سمى الله منها؛ كالتوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن؛ والقرآن هو أفضلها وخاتمتها، وهو المهيمن عليها والمصدق لها، وهو الذي يجب على جميع الأمة اتباعه وتحكيمه مع ما صحت به السنة عن رسول الله ﷺ؛ لأن الله ﷻ بعث رسوله محمدًا ﷺ رسولًا إلى جميع الثقلين، وأنزل عليه هذا القرآن ليحكم به بينهم، وجعله شفاء لما في الصدور وتبيانًا لكل شيء، وهدى ورحمة للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وهكذا الرسل، يجب الإيمان بهم إجمالًا وتفصيلًا، فنؤمن أن الله ﷻ أرسل إلى عباده رسلًا منهم مبشرين ومنذرين ودعاة إلى الحق، فمن أجابهم فاز بالسعادة، ومن خالفهم باء بالخيبة والندامة، وخاتمهم وأفضلهم هو نبينا مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ومن سمى الله منهم أو ثبت عن رسول الله ﷺ تسميته آمنا به على سبيل التفصيل والتعيين، كنوح وهود وصالح وإبراهيم وغيرهم، صلى الله وسلم عليهم وعلى آلهم وأتباعهم"[1].

المسألة الثانية: أثر الإيمان بالملائكة والكتب والنبيين على زكاة القلب[2]، وفيه فرعان.

الفرع الأول: من آثار الإيمان بالملائكة على القلب.

أولًا: العلم بعظمة خالقهم تبارك وتعالى وقوته وسلطانه، فإن عظمة المخلوق من عظمة الخالق.

ثانيًا: زيادة حب الله وشكره تعالى على عنايته بعباده، حيث وكل بهم من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم وكتابة أعمالهم، وغير ذلك من مصالحهم.

ثالثًا: محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله تعالى على الوجه الأكمل، واستغفارهم للمؤمنين.

رابعًا: أن تتطهر عقيدة المسلم من شوائب الشرك وأدرانه؛ لأن المسلم إذا آمن بوجود الملائكة الذين كلفهم الله بهذه الأعمال العظيمة تخلص من الاعتقاد بوجود مخلوقات وهمية تسهم في تسيير الكون.

خامسًا: أن يعلم المسلم أن الملائكة لا ينفعون ولا يضرون، وإنما هم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، فلا يعبدهم ولا يتوجه إليهم، ولا يتعلق بهم.

---

(١) العقيدة الصحيحة وما يضادها (٨-٩).

(٢) ينظر في ذلك: عقيدة أهل السنة والجماعة للعثيمين (٣٢-٣٣)، شرح ثلاثة الأصول للعثيمين (٩٢)، الإسلام أصوله ومبادئه (٢/ ١٣٣).

سادسًا: ومن آثار الإيمان بالملائكة على القلب: أن الله جعلهم من أسباب ثبات المؤمن في مواجهة أعداء الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢].

الفرع الثاني: من آثار الإيمان بالكتب والرسل على القلب.

أولًا: العلم برحمة الله تعالى وعنايته بخلقه، حيث أنزل لكل قوم كتابًا يهديهم به، ورسلًا يهدونهم ويرشدونهم.

ثانيًا: ظهور حكمة الله تعالى، حيث شرع في هذه الكتب لكل أمة ما يناسبها، وكان خاتم هذه الكتب القرآن العظيم مناسبًا لجميع الخلق في كل عصر ومكان إلى يوم القيامة.

ثالثًا: زيادة حب الله وشكر نعمته تعالى على ذلك.

المطلب الرابع: الإيمان بالقضاء والقدر وأثره على زكاة القلب، وفيه مسائل.

المسألة الأولى: معناه.

أولاً: معنى القضاء والقدر لغة.

القضاء: القاف والضاد والحرف المعتل يدل على إحكام الأمر وإتقانه وإنفاذه لجهته.

والقضاء: الحكم، ولذلك سمي القاضي قاضيًا؛ لأنه يحكم الأحكام وينفذها. وسميت المنية قضاءً؛ لأنها أمر ينفذ في ابن آدم وغيره من الخلق(١).

القدر: القاف والدال والراء يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، فالقدر: مبلغ كل شيء، يقال: قدره كذا، أي: مبلغه، وكذلك القدر.

وقدرت الشيء أقدره وأقدره من التقدير، وقدرته أقدره.

والقدر: قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها، وهو القدر أيضًا، وهو ما يقدره الله ﷻ من القضاء، ويأتي بمعنى القدرة والتقدير(٢).

ثانياً: معنى القضاء والقدر في الاصطلاح:

عرفه العلماء بعدة تعريفات، كلها تدور حول مراتب القدر الأربع، ومن ذلك:

- ما ذكر ابن القيم بأنه "خلق الله تعالى لأفعال المكلفين ودخولها تحت قدرته ومشيئته كما دخلت تحت علمه وكتابه"(٣).

- هو "ما سبق به العلم وجرى به القلم، مما هو كائن إلى الأبد، وأنه ﷻ قدَّر مقادير الخلائق وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم ﷻ أنها ستقع في أوقات معلومة

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٩٩)، لسان العرب (١٥/ ١٨٦).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٦٢)، الصحاح (٢/ ٧٨٦-٧٨٧).

(٣) شفاء العليل (٥٣).

عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها"[1].

- وعُرِّف بأنه: "تقدير الله تعالى للأشياء في القِدَم، وعلمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة وعلى صفات مخصوصة، وكتابته لذلك، ومشيئته له، ووقوعها على حسب ما قدرها، وخلقه لها"[2].

المسألة الثانية: مراتب القدر والدليل عليه:

وملخص مراتب القدر كما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله: بأن الإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الموصوف به أزلًا، فعلم ﷻ جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق قال ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[3]، كما قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، وهذا التقدير -التابع لعلمه ﷻ- يكون في مواضع جملة وتفصيلًا فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء: وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكًا؛ فيؤمر بأربع كلمات فيقال له: اكتب رزقه، وأجله، وعمله،

---

(١) هذا تعريف السفاريني في لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٤٨).

(٢) كما عرفه د. عبد الرحمن المحمود في كتابه القضاء والقدر (٣٩-٤٠).

(٣) أخرجه أحمد (٣٧/ ٣٧٨- ٣٧٩) ح (٢٢٧٠٥)، وأبو داود(٤/ ٢٢٥) ح (٤٧٠٠)، والترمذي(٤/ ٤٥٧) ح (٢١٥٥) جميعهم من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٠٥) ح (٢٠١٧).

وشقي أو سعيد[1]؛ ونحو ذلك، فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديمًا، ومنكره اليوم قليل.

وأما الدرجة الثانية: فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله ﷻ، لا يكون في ملكه إلا ما يريد، وأنه ﷻ على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات، فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه ﷻ، لا خالق غيره ولا رب سواه، ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته، وهو ﷻ يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد، والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم؛ والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم، وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]. وهذه الدرجة من القدر يكذِّب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة[2]، ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حِكَمها ومصالحها[3].

---

(١) يشير بهذا إلى حديث عَبْد اللَّهِ بن مسعود ﷺ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ، قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوح..» الحديث أخرجه البخاري (٤/ ١١١) ح (٣٢٠٨)، ومسلم(٤/ ٢٠٣٦) ح (٢٦٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٩/ ٤١٥) ح (٥٥٨٤)، وأبو داود (٤/ ٢٢٢) ح (٤٦٩١) ولفظه: «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ» الحديث، وابن ماجه (١/ ٣٥) ح (٩٢)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٣٨) ح (١٠٧).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٨-١٥٠).

ومن الأدلة على القدر قول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وحديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب ﷺ، وفيه: قال: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١).

(١) أخرجه مسلم (١/ ٣٧) ح (٨).

المسألة الثالثة: أثر الإيمان بالقضاء والقدر على زكاة القلب[1].

للإيمان بالقضاء والقدر آثار عظيمة على زكاة القلب، ومن ذلك:

١- هداية الله له، وصفاء العقيدة:

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

٢- الإخلاص لله تعالى.

٣- صحة التوكل على الله.

٤- ظهور آثار عبادة الخوف والرجاء.

٥- ومن آثاره على سلوك العبد أنه من أكبر دواعي العمل والنشاط، والسعي في الأرض وعمارتها بما يرضي الله تعالى.

٦- يخلِّص القلوب من كثير من الأمراض التي تعصف بالمجتمعات من الحسد والشحناء والغل والشح والبخل والكبر ونحوها.

٧- تحرير القلب من الخرافة.

٨- القناعة وعزة النفس.

٩- يبعث في القلوب الشجاعة والصبر على المكاره.

---

(١) ينظر في ذلك: القضاء والقدر للمحمود (٤٤٧ وما بعدها)، والإيمان بالقضاء والقدر للحمد (٨٩ وما بعدها).

المطلب الخامس: الإيمان باليوم الآخر وأثره على زكاة القلب، وفيه مسألتان.

المسألة الأولى: معنى الإيمان باليوم الآخر، والدليل عليه[1].

التصديق الجازم بوقوعه لا محالة، والعمل بموجب ذلك، ويدخل فيه الإيمان بأشراط الساعة وأماراتها التي تكون قبلها لا محالة، وبالموت وما بعده من فتنة القبر وعذابه ونعيمه، وبالنفخ في الصور وخروج الخلائق من القبور، وما في موقف القيامة من الأهوال وتفاصيل المحشر.

والإيمان باليوم الآخر يتضمن ثلاثة أمور:

الأول: الإيمان بالبعث: وهو إحياء الموتى حين ينفخ في الصور النفخة الثانية؛ فيقوم الناس لرب العالمين، حفاة عراة غُرلًا -غيرَ مختونين-، قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

والبعث: حق ثابت، دل عليه الكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥- ١٦].

وقال النبي ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»[2].

وأجمع المسلمون على ثبوته، وهو مقتضى الحكمة، حيث تقتضي أن يجعل الله تعالى لهذه الخليقة معادًا، يجازيهم فيه على ما شرعه لهم فيما بعث به رسله، قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

---

(١) ينظر في ذلك: أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة (٥٥)، نبذة في العقيدة الإسلامية (٥٢-٥٤).

(٢) أخرجه مسلم(٤/ ٢١٩٤) ح (٢٨٥٩).

الثاني مما يتضمنه الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالحساب والجزاء والميزان، وهو أن يحاسب الله العبد على عمله، وينصب له الميزان، ويجازى على ما قدَّم، وقد جاءت الأدلة بذلك، ومنها:

قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وعَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ المازِنِي قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا آخِذٌ بِيَدِهِ إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ، فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي المؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكَافِرُ وَالمنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الأَشْهَادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»[(١)].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٨) ح (٢٤٤١)، ومسلم (٤/ ٢١٢٠) ح (٢٧٦٨).

ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»(١).

وقد أجمع المسلمون على إثبات الحساب والجزاء على الأعمال، وهو مقتضى الحكمة؛ فإن الله تعالى أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وفرض على العباد قبول ما جاءوا به، والعمل بما يجب العمل به منه، وأوجب قتال المعارضين له وأحل دماءهم، وذرّياتهم، ونساءهم، وأموالهم، فلو لم يكن حساب ولا جزاء؛ لكان هذا من العبث الذي ينزهُ الرب الحكيم عنه، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦، ٧].

الثالث مما يتضمنه الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالجنة والنار وأنهما المآل الأبدي للخلق:

فالجنة دار النعيم التي أعدها الله تعالى للمؤمنين المتقين، الذين آمنوا بما أوجب الله عليهم الإيمان به، وقاموا بطاعة الله ورسوله، مخلصين لله، متبعين لرسوله، فيها من أنواع النعيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧، ٨]، وقَال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى

(١) أخرجه البخاري (٨/ ١٠٣) ح (٦٤٩١)، ومسلم (١/ ١١٨) ح (١٣١).

قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]»[(١)].

وأما النار: فهي دار العذاب التي أعدَّها الله تعالى للكافرين الظالمين، الذين كفروا به وعصوا رسله، فيها من أنواع العذاب، والنَّكال ما لا يخطر على البال، قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥].

ومن الأدلة عليه غير ما ذكر قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقد قرن الله في كتابه الإيمان به مع الإيمان باليوم الآخر في آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

---

(١) أخرجه البخاري(٤/ ١١٨) ح (٣٢٤٤).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[آل عمران: ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]، وغير ذلك من الآيات.

المسألة الثانية: أثر الإيمان باليوم الآخر على زكاة القلب.

الإيمان باليوم الآخر له أثر عظيم على زكاة القلب، بل لعله من أعظم الأسباب لحصول صلاح القلوب وسلامتها، ومن تلك الآثار:

١- الخوف من الله تعالى الذي يثمر الانكفاف عن معصية الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[يونس: ١٥].

٢- الرجاء فيما عند الله من نعيم الآخرة.

٣- تعلق القلب بالآخرة مما يؤدي إلى المسابقة والمسارعة والمنافسة في الحصول على نعيم الآخرة:

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٦].

٤- معرفة الدنيا على حقيقتها بالنسبة للآخرة، فيؤدي ذلك إلى أن يصبح العبد ويمسي وأكبر همه الآخرة:

قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[التوبة: ٣٨].

وقال الرسول ﷺ: «وَاللهِ، مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ – وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ– فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟»(١).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ».

(١) أخرجه مسلم(٤/ ٢١٩٣) ح (٢٨٥٨).

المبحث الرابع: الأسس التعبدية لزكاة القلب، وفيه مطالب.

إن أعمال القلوب التي تبنى على أسس تعبدية خالصة لوجه الله موافقة لسنة رسول الله ﷺ تثمر بإذن الله تعالى صلاحًا للقلب، وسلامة له من الأمراض، وقربًا من الله عظيم، قال ﷺ: «إن الله قال: وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ» الحديث[1].

ودونك توضيح ذلك وفق المطالب الآتية:

المطلب الأول: التقرب إلى الله بالفرائض، وفيه مسائل.

توطئة.

وعلى رأس الفرائض الصلوات الخمس، وأثرها العظيم في زكاة القلب يرتبط بعبادة الخشوع فيها، فإذا اجتهد العبد في الصلاة الخاشعة زكى قلبه وطهر وترقى في مدارج العبودية، حتى يصل إلى أعلى المراتب، وهو أن يصل إلى مرتبة الإحسان التي قال عنها النبي ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2].

المسألة الأولى: الصلاة الخاشعة وأثرها العظيم على زكاة القلب.

الصلاة الخاشعة من أعظم العبادات أثراً على زكاة القلب وسلامته، وعبادة الخشوع في الصلاة، مرتبطة بعمل القلب ارتباطاً وثيقاً، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، وذلك لأن الخشوع يكون في القلب ويظهر أثره على الجوارح عند إقامة الصلاة.

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ١٠٥) ح (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٩) ح(٥٠)، ومسلم (١/ ٣٦) ح(٨).

يقول ابن رجب رحمه الله: " وأصل الخشوع هو: لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته فَإِذَا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء؛ لأنها تابعة له، كما قال ﷺ: "أَلَا إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ"(١).

فَإِذَا خشع القلب خشع السمع والبصر والرأس والوجه، وسائر الأعضاء وما ينشأ منها حتى الكلام"(٢).

وقد نقل الطبري عن الحسن البصري في معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ ، قال: "كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك البصر، وخفضوا به الجناح"(٣).

أي: جعلوا أبصارهم في موضع سجودهم، واستحضروا عظمة الوقوف بين يدي الله، فخفضوا الجناح له من هيبته وتعظيمه في قلوبهم.

ونقل ابن أبي شيبة في مصنفه عن مجاهد رحمه الله قال: "كان ابن الزبير إذا قام في الصلاة كأنه عود(٤) من الخشوع"، قال مجاهد: وَحُدِّثْتُ أن أبا بكر كان كذلك(٥).

وقال ابن كثير رحمه الله: "والخشوع في الصلاة إنما يحصل بمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين"(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٠) ح (٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩) ح (١٥٩٩).

(٢) الذل والانكسار للعزيز الجبار (٢٩٠).

(٣) تفسير الطبري (١٧/ ٨).

(٤) أي كأنه عود ثابت لا يتحرك من شدة خشوعه، وذكر ابن عساكر في تاريخه: أن ابن الزبير إذا سجد وقعت العصافير على ظهره كأنه قطعة من جدار من خشوعه ﷺ. ينظر: تاريخ دمشق(٢٨/١٧٠).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة(٢/ ١٢٥) رقم (٧٢٤٥).

(٦) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٦١-٤٦٢).

ولعمل القلب أثر عظيم على خشوع العبد في صلاته، وكما نعلم يقيناً أن القلب إذا صلح صلحت سائر الجوارح كما سبق في الحديث : «أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ»، وعلى هذا فلا سبيل للخشوع إلا بصلاح القلب.

أسباب الخشوع في الصلاة.

ودونك بعض الأسباب المعينة على الخشوع في الصلاة.

السبب الأول: الإخلاص لله تعالى في هذه العبادة.

وقد سبق الكلام على الإخلاص.

السبب الثاني: المتابعة للنبي ﷺ في هذه العبادة، وإقامتها على السنة، حيث يقول ﷺ من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه: «وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[1].

فإن من أسباب الخشوع إقامة العبد للصلاة كما أمر الله؛ مخلصًا له فيها، متبعًا لهدي النبي ﷺ في صفتها كما أمر.

السبب الثالث: الشعور في قلبه بحاجته الماسة لعبادة الخشوع، مع شعوره بالخلل الكبير الحاصل منه في هذه العبادة في صلاته، وهذا الأمر إذا وجد في القلب حرك العبد إلى بذل الأسباب في الحصول على الخشوع.

السبب الرابع : الدعاء.

والدعاء من أعظم الأسباب الجالبة للخشوع لما له من الآثار العظيمة في تحقيق المقصود، وإذا أراد العبد صلاح قلبه وأن يرزقه الله الخشوع في صلاته، فليقبل على الدعاء بذلك، ويلح على ربه ويستمر ولا ينقطع عن دعائه بذلك، وسيجد ثمرة ذلك خشوعاً في صلاته وتلذذاً بها، والله قريب من عبده لطيف به رحيم، فجاهد نفسك يا عبد الله على الخشوع في صلاتك واستعن بالله ولا تعجز.

وسيأتي الحديث بشيء من التفصيل عن عبادة الدعاء.

---

(١) أخرجه البخاري(٨/ ٩) ح (٦٠٠٨).

السبب الخامس من أسباب الخشوع: مجاهدة النفس على حضور القلب في الصلاة.

وهذا العمل العظيم من مجاهدة النفس لأجل حضور القلب في الصلاة، يحتاج إلى متابعة واستمرار على هذه المجاهدة لكثرة الصوارف والملهيات، وحتى يجد العبد بعد هذه المجاهدة ثمرة ذلك بلذة العبادة وحلاوتها، وقال تعالى لبيان أثر المجاهدة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

"وقيل: لنوفقنهم لإصابة الطريق المستقيمة، والطريق المستقيمة هي التي يوصل بها إلى رضا الله ﷻ..، وقيل: المجاهدة هي الصبر على الطاعات.."[(١)].

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾ [العنكبوت: ٦]، ولأن تكاليف النفس، ومنها مجاهدتها على الخشوع يحتاج إلى صبر ومجاهدة للشيطان والنفس، وعاقبة تلك المجاهدة وثمرتها الظفر بالمطلوب والوصول إلى ما يريده العبد من الخشوع والتلذذ بصلاته.

وقال ابن حجر رحمه الله عن الصلاة: "ولا شيء أقر لعين العبد منها، ولهذا جاء في حديث أنس المرفوع: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» أخرجه النسائي وغيره بسند صحيح، ومن كانت قرة عينه في شيء، فإنه يود أن لا يفارقه، ولا يخرج منه؛ لأن فيه نعيمَه، وبه تطيب حياته، وإنما يحصل ذلك للعابد بالمصابرة على النصب، فإن السالك غرضُ الآفات والفتور"[(٢)].

والمعنى والله أعلم: أنه لا تحصل قرة العين في الصلاة إلا بمجاهدة النفس على الخشوع فيها وحضور القلب وإقباله عليها، وذلك يحتاج إلى كبير مجاهدة مع الاستمرار وعدم الانقطاع، وبذلك يحصل المسلم على التلذذ بالصلاة، وأن تكون راحة وقرة عين له.

---

(١) ينظر: تفسير البغوي

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٤٥).

وقال بعض السلف رحمه الله: "كابدت[1] الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة"[2].

والمكابدة من كابد الأمر إذا قاساه بمشقة، أي: بمعنى: جاهد نفسه على بذل أسباب الخشوع في صلاته.

وتلاحظ في لفظة المكابدة طول المجاهدة واستمرارها وعدم الفتور عن ذلك إلى أن تحصل للعبد ثمرة تلك المجاهدة بحصول لذة العبادة التي تنسيه ما مر به من صعوبات، وهو يجاهد نفسه على الخشوع في صلاته، ومن رحمة الله بعباده أن جعل لهم في هذه الدنيا بعض ثمرات العبادة المعجلة قبل ثواب الآخرة؛ لينشطوا في العبادات، ويستمروا على الطاعات، قال ابن القيم رحمه الله: "فإن سرور القلب بالله وفرحه به، وقرة العين به، لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا البتة، وليس له نظير يقاس به، وهو حال من أحوال أهل الجنة، حتى قال بعض العارفين: "إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب".

ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله عز وجل، وبذل الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته، ومن لم يجد هذا السرور، ولا شيئاً منه، فليتهم إيمانه وأعماله، فإن للإيمان حلاوة، من لم يذقها فليرجع، وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان.

وقد ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان ووجد حلاوته، فذكر الذوق والوجد، وعلقه بالإيمان، فقال: «ذاق طعمَ الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمّدٍ رسولًا».

---

(١) والمكابدة من كابد الأمر إذا قاساه بمشقة. ينظر: الصحاح (٢/ ٥٣٠)، مقاييس اللغة (٥/ ١٥٣)، لسان العرب (٣/ ٣٧٦) مادة (كبد). أي: بمعنى: جاهد نفسه على بذل أسباب الخشوع فيها.

(٢) ذكره في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٣٢١)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٢٢٤) عن ثابت البناني رحمه الله.

وقال: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوةَ الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، ومن كان يحبُّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يُلقى في النار».

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول: "إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً، فاتهمه، فإن الرب تعالى شكور".

يعني أنه لا بد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراح وقرة عين، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول"[1].

وعلى هذا فمن جاهد نفسه على الخشوع في صلاته وبذل الأسباب المعينة على ذلك وفقه الله للخشوع في صلاته وصارت راحة لنفسه وقرة عين له.

وإليك مجموعة من أسباب الخشوع في الأحاديث الآتية:

وهذه الأسباب لها أثر كبير على خشوع القلب في الصلاة إذا حقق العبد ما في هذه الأحاديث من الأسباب، وجاهد نفسه على ذلك:

السبب السادس: من أعظم أسباب الخشوع تفريغ القلب لله في الصلاة.

حديث عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه الطويل وفيه: قَالَ: فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ فَالْوُضُوءَ حَدِّثْنِي عَنْهُ، قَالَ: «مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ فَيَتَمَضْمَضُ، وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ، وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ، ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى،

(١) مدارج السالكين (٢/ ٦٧- ٦٨).

فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ، إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[1].

والشاهد معنا في الحديث على الخشوع قوله ﷺ:" وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ ".

ومعناه: «وفرغ قلبه لله» أي: جعله حاضرًا لله، وفرغه من الأشغال الدنيوية[2].

وهذا هو الخشوع أي: حضور القلب بين يدي الله في الصلاة.

يقول ابن كثير رحمه الله: "والخشوع في الصلاة إنما يحصل بمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين"[3].

ومما يعين على تفريغ القلب لله في الصلاة أمور منها:

١- دفع كيد الشيطان الذي يسعى لإشغال المسلم في صلاته حتى يفقد حضور قلبه في عبادته، فيذهب منه الخشوع، وهذه بعض الوسائل المعينة على دفع كيد الشيطان:

الاستعاذة منه في موطنين:

الموطن الأول: خارج الصلاة؛ وذلك بقول الأذكار والأوراد المشروعة لدفع كيده، ومنها:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ، يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ»[4].

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٦٩) ح(٨٣٢).

(٢) ينظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٤٦١)، المفاتيح في شرح المصابيح (٢/ ٢١٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٦١-٤٦٢).

(٤) أخرجه البخاري واللفظ له (٤/ ١٢٦) ح (٣٢٩٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٧١) ح (٢٦٩١).

والذكر عمومًا من أقوى الحروز من كيد الشيطان[1].

ذكر الخروج من المنزل:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ -يَعْنِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ-: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، يُقَالُ لَهُ: كُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ»[2].

ذكر دخول المسجد:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»... قَالَ: «فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ، قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ»[3].

الموطن الثاني: الاستعاذة منه في داخل الصلاة في موضعين:

أولاً: قبل قراءة الفاتحة في الصلاة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

ثانياً: إذا كثرة وساوسه في الصلاة، يستعيذ بالله ويتفل عن يساره ثلاثًا:

---

(١) وفي الحديث في سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٤٩) وصححه الألباني: "وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ " .

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٣٢٥) ح (٥٠٩٥)، وأخرجه الترمذي واللفظ له (٥/ ٤٩٠) (٣٤٢٦)، وقال: "هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٦٥) (١٦٠٥)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لسنن أبي داود (٧/ ٤٢٥) ح (٥٠٩٥): "حديث حسن بشواهده".

(٣) أخرجه أبو داود (١/ ١٢٧) ح (٤٦٦)، وقال النووي في الأذكار (٨٥) ح (٧٠): "حديث حسن، رواه أبو داود بإسناد جيد"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/٢٦٥) ح (١٦٠٦).

عن عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي، وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ: خِنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا»، قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي[1].

قال الشيخ عبد العزيز الراجحي حفظه الله في شرحه على مسلم: «فإذا كثرت الوساوس فإنه يشرع للإنسان أن يتفل عن يساره ثلاثًا، ويقول: أعوذ بالله من الشيطان، حتى ولو كان في الصلاة، ولوكان مع جماعة يميل إلى يساره قليلًا وينفث نفثًا خفيفًا لا يعلم به من بجواره، مع حضور القلب وحسن الظن بالله»[2].

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٧٢٨) ح (٢٢٠٣).

(٢) توفيق الرب المنعم بشرح صحيح الإمام مسلم (٦/ ٣٣٧).

٢- ومما يعين على تفريغ القلب لله أن يشعر المصلي بعظمة الموقف بين يدي الله في الصلاة، وأن يعلم بيقين أن الله مطلع عليه يعلم ما في قلبه، ويسمعه ويراه:

ويحدث هذا المعنى العظيم إذا استشعر القلب معاني الأسماء والصفات، وبالأخص أسماء الله وصفاته: العليم السميع البصير، وحصل في قلبه بأن الله مطلع عليه، لا تخفى منه خافية، يعلم ما في قلبه، ويستحضر في موقفه في صلاته سمع الله له وبصره، فيقف بين يديه وكأنه يرى الله أمامه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [فصلت: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣-١٤].

وما ورد في هذا المعنى من الآيات كثير جداً في كتاب الله، فحين يستحضر المصلي معاني هذه الآيات، فإنه يشعر بعظمة الموقف بين يدي ربه ﷻ العالم بسره ونجواه، والمطلع على ما تخفيه الصدور، والذي أحاط علمًا بكل شيء، الذي يسمعه ويراه، فحضور هذه

المعاني العظيمة يحدث في القلب الخشوع في الصلاة والإقبال عليها بوجهه وقلبه، فيخرج إلى الصلاة وهو يستحضر في قلبه هذه المعاني، ويجاهد نفسه على هذا، حتى وهو يمشي إلى الصلاة لا بد أن يلتزم أدب المشي إلى الصلاة، الذي سأشير إليه في الفقرة التالية، وذلك لأنه في مشيه إلى الصلاة فهو في صلاة كما ورد في الحديث يقول ﷺ: «فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ يَعْمِدُ إِلَى الصَّلَاةِ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ» الحديث[1].

٣- المشي إلى الصلاة بسكينة ووقار من الأسباب المعينة على تفريغ القلب لله في الصلاة:

عن أَبَي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا تَمْشُونَ، عَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»[2]. وفي الرواية الأخرى يقول المصطفى ﷺ: «وَلَكِنْ لِيَمْشِ وَعَلَيْهِ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ» الحديث[3].

وفي معنى السَّكِينَة وَالْوَقَار قال النووي رحمه الله: "قيل: هما بمعنى[4]، وجمع بينهما تأكيدًا، والظاهر أن بينهما فرقًا، وأن السكينة التأني في الحركات، واجتناب العبث، ونحو ذلك، والوقار في الهيئة، وغض البصر، وخفض الصوت، والإقبال على طريقه بغير التفات، ونحو ذلك والله أعلم"[5].

وفي هذا والله أعلم تنبيه على الشعور بعظمة الموقف بين يدي الله، وان العبد في طريقه إلى الصلاة يهييء نفسه في مشيه إلى الصلاة، فهو في صلاة من حين خروجه لدخول بيت الله وللوقوف بين يديه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٤٢١) ح (٦٠٢).

(٢) أخرجه البخاري(٢/ ٧) ح (٩٠٨)، ومسلم(١/ ٤٢٠) ح (٦٠٢).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٤٢١) ح (٦٠٢).

(٤) أي: بمعنى واحد.

(٥) شرح النووي على مسلم (٥/ ١٠٠).

قَالَ: «إِذَا ثُوِّبَ لِلصَّلَاةِ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ يَعْمِدُ إِلَى الصَّلَاةِ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ»[1]، وهنا يجاهد العبد نفسه في تفريغ القلب لله في صلاته، وهو يعد نفسه إلى الذهاب إلى بيت الله، فيشعر في قلبه أثناء مشيه للصلاة بعظمة الوقوف بين يديه، فيمشي مشية تليق بهذا المقام العظيم بين يدي الله، وذلك مما يعين على تهيئة النفس ليتفرغ القلب لله في صلاته من أولها إلى آخرها.

٤- ومما يعين كذلك على تفريغ القلب لله في الصلاة أن يشعر بعظمة النداء للصلاة، فقد كان السلف رحمهم الله يعظمون أمر الأذان؛ لأنه يذكرهم بعظمة الموقف بين يدي الله يوم القيامة، فيرددون مع المؤذن بقلوب حاضرة تفهم ما تسمع من المؤذن وترده بعده:

"وقد روى ابن أبي الدنيا في "كتاب الرقة والبكاء" بإسناده، عن يحيى البكاء، عن الحسن، قال: إذا اذن المؤذن لم تبق دابة بر ولا بحر الا اصغت واستعمت. قال: ثم بكى الحسن بكاء شديداً.

وبإسناده، عن أبي عمران الجوني، انه كان إذا سمع الاذان تغير لونه، وفاضت عيناه.

وعن أبي بكر النهشلي نحو - أيضاً -، وانه سئل عن ذلك، فقال: اشبهه بالصريخ يوم العرض، ثم غشى عليه.

وحكى مثل ذلك من غيره من الصالحين - أيضاً.

وعن الفضيل بن عياض، أنه كان في المسجد، فأذن المؤذن، فبكى حتى بل الحصى، ثم قال: شبهته بالنداء، ثم بكى"[2].

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٤٢١) ح(٦٠٢).

(٢) فتح الباري لابن رجب (٥/ ٣٠١).

٥- وكان السلف رحمهم الله يشعرون بعظمة الموقف بين يدي الله في صلاتهم، فيعدون أنفسهم لذلك، وهو مما يعين على تفريغ القلب لله تعالى في الصلاة:

كان علي بن الحسين الملقب بزين العابدين إذا توضأ يصفر لونه، فإذا قام إلى الصلاة ارتعد من الخوف، فقيل له في ذلك فقال: ألا تدرون بين يدي من أريد أن أقوم ولمن أناجي؟[١].

و"كَانَ عَطَاءٌ السَّلِيمِيُّ إذا فرغ من وضوئه انتفض وارتعد وبكى بكاء شديداً، فيقال له في ذلك فيقول: إني أريد أن أقدم على أمر عظيم أريد أن أقوم بين يدي الله عز وجل"[٢].

٦- ومما يعين على تفريغ لله في الصلاة أمر مهم، وهو التبكير إلى الصلاة والمسارعة إلى ذلك:

من أسباب تفريغ القلب في الصلاة من مشاغل الدنيا التبكير إلى الصلاة، وذلك حينما يبكر العبد إلى صلاته، فيتمكن من إقبال قلبه على صلاته، وصفاء القلب من شواغل الدنيا، والتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة بين الأذان والإقامة، كل ذلك مما يعين على الخشوع وحضور القلب، ولهذا جاء الحث على التبكير فقال ﷺ: «وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لاَسْتَبَقُوا إِلَيْهِ»[٣].

قال النووي رحمه الله: "التهجير التبكير إلى الصلاة، أي صلاة كانت"[٤].

قال ابن رجب رحمه الله: "وقد ندب النبي ﷺ إلى التهجير إلى الصلاة، وهو القصد إلى المساجد في الهجير، إما قبل الأذان أو بعده.. وقد كان كثير من السلف يأتي المسجد قبل الأذان، منهم: سعيد بن المسيب، وكان الإمام أحمد يفعله في صلاة الفجر.. وقال بعض

---

(١) ينظر:ا لبداية والنهاية(١٢/ ٤٨٢).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٢١٨).

(٣) أخرجه البخاري (١/ ١٢٦) ح (٦١٥)، ومسلم (١/ ٣٢٥) ح (٤٣٧).

(٤) شرح النووي على مسلم (٤/ ١٥٨).

السلف في قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠] : إنهم أول الناس خروجًا إلى المسجد، وإلى الجهاد"[١].

وهكذا المرأة المسلمة الصالحة تبادر إلى صلاتها قبل أن تشغلها الشواغل عنها، فعندما تسمع النداء للصلاة، يكون همها الأعظم كيف تعد نفسها للاتصال بالله العظيم الجليل بخشوع وخضوع، وتجاهد نفسها على تفريغ قلبها لله في صلاتها وتستحضر عظمة الموقف بين يديه، وتلح على الله في الدعاء أن يرزقها الخشوع في صلاتها لتجد لذة الصلاة وحلاوتها، فتقر عينها بها كما كانت لحبيبها وقدوتها مُحَمَّد ﷺ الذي يقول لأمته رجالاً ونساءً، عنها:«يَا بِلَالُ، أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا»[٢]،وقالﷺ:«وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[٣].

يصف ابن القيم رحمه الله حال المحبين للصلاة فيقول: «فإن الصلاة إنما تُكَفِّرُ سيئات من أدّى حقها، وأكمل خشوعها، ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه؛ فهذا إذا انصرف منها وجد خِفَّةً من نفسه، وأحس بأثقالٍ قد وُضِعَتْ عنه، فوجد نشاطًا وراحةً وروحًا، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها؛ لأنها قرةُ عينه، ونعيمُ روحه، وجنة قلبه، ومُسْتَرَاحُه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها، فيستريح بها، لا منها، فالمحِبُّون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا، كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم ﷺ: "يا بلالُ أرِحنا بالصَّلاة"، ولم يقل: أرحنا منها.

---

(١) فتح الباري لابن رجب (٥/ ٣٥٢)، وينظر: تفسير ابن جرير (٢٢/ ٢٩٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٩٦) ح (٤٩٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٣٠٧) ح (٧٨٩٢)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لسنن أبي داود (٧/ ٣٣٨) ح (٤٩٨٥) "إسناده صحيح".

(٣) أخرجه أحمد (٢١/ ٤٣٣) ح (١٤٠٣٧)، والنسائي (٧/ ٦١) ح (٣٩٤٠)، والحاكم (٢/ ١٧٤) ح (٢٦٧٦) وصححه ووافقه الذهبي، وصحح إسناده ابن حجر في الفتح(١١/٣٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٩٩) ح (٣١٢٤).

وقال ﷺ: "جُعِلت قُرَّة عيني في الصّلاةِ". فمن جُعِلَتْ قرة عينه في الصلاة، فكيف تقر عينه بدونها، وكيف يطيق الصبر عنها؟! فصلاة هذا الحاضر بقلبه الذي قرة عينه في الصلاة، هي التي تصعد ولها نور وبرهان، حتى يُسْتَقْبَلَ بها الرحمن عز وجل فتقول: "حَفِظَكَ اللهُ تعالى كمَا حَفِظْتَني"، وأما صلاة المفرّط المضيّع لحقوقها وحدودها وخشوعها؛ فإنها تُلَفُّ كما يُلَفُّ الثوب الخَلِق، ويُضْرَب بها وجه صاحبها وتقول: "ضَيَّعَكَ اللهُ كما ضَيَّعْتَنِي"»[1].

٧- من أسباب تفريغ القلب لله في الصلاة أن يقطع كل ما يشغله في صلاته من الأمور الحسية؛ لأنها تشغل قلبه عن الخشوع في صلاته، ودونك بعضاً منها:

الأول: من طعام تتعلق به النفس وتشتهيه، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا وُضِعَ عَشَاءُ أَحَدِكُمْ وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَابْدَءُوا بِالْعَشَاءِ، وَلَا يَعْجَلَنَّ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهُ» [2].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا قُدِّمَ العَشَاءُ، فَابْدَءُوا بِهِ قَبْلَ أَنْ تُصَلُّوا صَلاَةَ المَغْرِبِ، وَلاَ تَعْجَلُوا عَنْ عَشَائِكُمْ»[3].

وكَانَ ابْنُ عُمَرَ: «يَبْدَأُ بِالعَشَاءِ» وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «مِنْ فِقْهِ المَرْءِ إِقْبَالُهُ عَلَى حَاجَتِهِ حَتَّى يُقْبِلَ عَلَى صَلاَتِهِ وَقَلْبُهُ فَارِغٌ»[4].

الثاني: ألا يأتي الصلاة وهو يشعر بأحتقان البول أو الغائط في بطنه، بل يقضي حاجته أولاً حتى يتفرغ قلبه لصلاته، ويقول ﷺ: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا هُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَثَانِ»[1].

---

(١) الوابل الصيب – ط عطاءات العلم (١/ ٤٦-٤٧).

(٢) صحيح مسلم (١/ ٣٩٢) ح(٥٥٩).

(٣) صحيح البخاري (١/ ١٣٥) ح(٦٧٢).

(٤) صحيح البخاري (١/ ١٣٥).

والأخبثان: هما البول والغائط.

وقال النووي:" في هذه الأحاديث كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله؛ لما فيه من اشتغال القلب به وذهاب كمال الخشوع، وكراهتها مع مدافعة الأخبثين وهما البول والغائط، ويلحق بهذا ما كان في معناه مما يشغل القلب ويذهب كمال الخشوع "[٢].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَرْقَمِ، أَنَّهُ خَرَجَ حَاجًّا، أَوْ مُعْتَمِرًا وَمَعَهُ النَّاسُ، وَهُوَ يَؤُمُّهُمْ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَقَامَ الصَّلَاةَ، صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ قَالَ: لِيَتَقَدَّمْ أَحَدُكُمْ وَذَهَبَ إِلَى الْخَلَاءِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَذْهَبَ الْخَلَاءَ وَقَامَتِ الصَّلَاةُ، فَلْيَبْدَأْ بِالْخَلَاءِ»[٣].

(١) صحيح مسلم (١/ ٣٩٣) ح(٥٦٠).

(٢) شرح مسلم (٥/ ٤٦).

(٣) سنن أبي داود (١/ ٢٢) ح(٨٨)،وصححه الألباني في تحقيقه لسنن أبي داود، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لسنن أبي داود(١/ ٦٥):" إسناده صحيح".

السبب السابع: من أسباب الخشوع أن يقبل بقلبه ووجهه على صلاته.

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ، قَالَ: كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الْإِبِلِ، فَجَاءَتْ نَوْبَتِي فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ، فَأَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَأَدْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»(١).

قال النووي: "وقد جمع ﷺ بهاتين اللفظتين أنواع الخضوع والخشوع لأن الخضوع في الأعضاء والخشوع بالقلب"(٢).

للعبد في صلاته قبلتان:

الأولى: قبلة البدن يتوجه إلى جهة القبلة.

والثانية: قبلة القلب وهو الرب سبحانه وتعالى(٣).

وانظر رحمك الله إلى هذه الجائزة العظيمة : **"إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ"**، ثم انظر إلى سببها كما في الحديث: **"مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ"**، ودونك الباب مفتوح في كل يوم لتحصل على هذه الجائزة العظيمة، وتفوز بها ذلك الفوز العظيم، ولكن جاهد نفسك على أسباب ذلك من إحسان الوضوء، وأن تقبل بوجهك وقلبك على الله في صلاتك، نسأل الله لنا ولكم من فضله الكريم.

---

(١) أخرجه مسلم(١/ ٢٠٩) ح (٢٣٤).

(٢) شرح مسلم (٣/ ١٢١).

(٣) ينظر: ص (١٠) من تطريز كتاب صفة صلاة النبي ﷺ للعلامة مُحَمَّد بن صالح العثيمين، والتطريز شرح مختصر لفضيلة الشيخ الدكتور صالح العصيمي، منقول من الشرح الصوتي، ضمن سلسلة شروح وتطريزات فضيلة الشيخ (٨٢) النسخة الأولى.

السبب الثامن: من أسباب الخشوع في الصلاة أن يعلم معنى ما يقوله في صلاته.

عن عقبة بن عامر ﷺ، يَقُولُ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُسْبِغُ[1] الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُومُ فِي صَلَاتِهِ فَيَعْلَمُ مَا يَقُولُ إِلَّا انْفَتَلَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا لَيْسَ عَلَيْهِ ذَنْبٌ»[2].

والشاهد من الحديث على موضوعنا، هو قوله ﷺ:" ثُمَّ يَقُومُ فِي صَلَاتِهِ فَيَعْلَمُ مَا يَقُولُ "

وهذا من أعظم أسباب الخشوع أن يعلم ما يقوله في صلاته، ولا يحصل ذلك إلا بحضور القلب والفهم والتركيز على ما يقوله في صلاته من الأمور الآتية:

أن يعلم ما يقوله في صلاته من أذكار فهو يقول في كل ركعة عدة أذكار يلتزم بقولها في كل ركعة منها:

١- قول الله أكبر، وهو أكثر ذكر يردده في صلاته ويسمعه من إمامه إذا كان ممن تجب عليهم صلاة الجماعة.

دعونا نردد هذه التسأولات:

هذا الذكر نردده في صلاة الفريضة أكثر (٩٠) مرة ونسمعه كذلك من الإمام.

---

(١) وإسباغ الوضوء: إتمامه وأكماله بغسل العضو الذي يغسل ثلاثًا، وقال ابن عبد البر رحمه الله في معنى الإسباغ: "الإكمال والإتمام من ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ [لقمان: ٢٠]، يعني: أتمها عليكم وأكملها، وإسباغ الوضوء أن يأتي بالماء على كل عضو يلزمه غسله مع إمرار اليد، فإذا فعل ذلك مرة وأكمل فقد توضأ مرة".

ينظر: الاستذكار (٢/ ٣٠٢) لابن عبد البر.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٣٢) ح (٣٥٠٨)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٩٥) ح (١٩٠).

ما أثر هذا الذكر علينا في قلوبنا؟! وهل نحن نعلم معنى ما نقول؟!

٢- تكرار سورة الفاتحة في كل ركعة فيحضر قلبه ليعلم معاني هذه السورة العظيمة، وسيأتي مزيد بيان لذلك.

٣- نعلم معاني ما نتلوه وما نسمعه[١] من آيات الكتاب العزيز بعد سورة الفاتحة.

٤- نقول في الركوع (سبحان ربي العظيم) على الأقل ثلاث مرات في كل ركعة. فنقوله في الفريضة (٥١) مرة فما أثره على قلوبنا؟ وهل ندرك معنى ما نقول؟!

٥- نقول في السجود(سبحان ربي الأعلى) على الأقل ثلاث مرات في كل سجدة. فنقوله في الفريضة(١٠٢) مرة ويتكرر نفس السؤال!!!

٦- يقول الإمام والمنفرد حين الرفع من الركوع (سمع الله لمن حمده) في كل ركعة، ويقول الجميع الإمام والمنفرد والمأموم(ربنا ولك الحمد) فهل نعلم ما نقول؟!!

٧- نقول في كل صلاة في الركعة الثانية التحيات كاملة في الثنائية ونقولها في التشهد الأوسط في الثلاثية والرباعية، ونقولها كاملة في التشهد الأخير، فهل نعلم ما نقوله في صلاتنا؟

٨- ثم نختم الصلاة بقول(السلام عليكم ورحمة الله) على اليمين والشمال، فهل نعلم ما نقوله؟

٩- وغير ذلك مما نقوله في صلاتنا.

---

(١) المأموم الذي يصلي خلف إمامه ويسمع تلاوته، فعليه أن يحضر قلبه؛ ليعرف معاني ما يسمعه من الآيات؛ ليخشع قلبه وتنزل عليه رحمة الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

السبب التاسع: ومن أسباب الخشوع في الصلاة أن يجاهد العبد نفسه في صلاته؛ ليستحضر قلبه معاني ما يتلوه من سورة الفاتحة، وأن الله يصطفيه ليخاطبه كلما قرأ آية منها، فهذا يزيد خشوعه في صلاته، ويجعله يستشعر عظمة خطاب الله له، فكيف يليق بالعبد أن ينصرف عن مناجاة ربه؟!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ» ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ. فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ؟ فَقَالَ: اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي-، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

قراءة سورة الفاتحة في الصلاة وسماعها من الإمام في الصلاة الجهرية وقراءتها في كل ركعة من الصلوات الفرائض والنوافل في كل يوم، هذا يستلزم أن يكون لهذا التكرار أثره على القلب في حضوره وتدبره لأعظم سورة في القرآن، وذلك يؤدي إلى شعور العبد بلذة قراءة الفاتحة، وكلما أقبل قلب العبد على فهم معاني هذه السورة العظيمة، زاد خشوعه وإقباله بقلبه على ربه في صلاته.

وهذه بعض التنبيهات حول هذا الحديث العظيم:

---

(١) أخرجه مسلم(١/ ٢٩٦) ح (٣٩٥).

١- **الحذر من حجب الغفلة بسبب الذنوب التي تعمي القلوب، فتحرمها من لذة المناجاة، وإلى الله المشتكى،** ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]،﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]، فإن الذنوب تعمي القلب، وتجعل عليه حجاباً كثيفاً لا تصل إليه لذة المناجاة وحلاوة سماع خطاب الله من خلال القلب مع حضوره فيرتقي العبد في سلم العبودية حتى يصل إلى مرتبة الإحسان التي قال عنها النبي ﷺ:«أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[(١)]، فيحضر القلب عند تلاوة سورة الفاتحة حتى كأنه يسمع كلام الله له مع كل آية يتلوها.

٢- كم مرة يا عبد الله حضر قلبك فسمع خطاب الله له، وشعرت بعظمة الاصطفاء من ربك، وهو يخاطبك مع كل آية تقرؤها من سورة الفاتحة فيقول لك:(حمدني عبدي، أثنى علي عبدي، مجدني عبدي، فوض إلي عبدي، هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل..)

٣- هل ندرك عظمة هذا الخطاب الموجه لنا من ربنا ﷻ(عبدي.. عبدي.. عبدي..)؟!

كم أنت محظوظ أيها المسلم المقبل على ربه في صلاته، وملك الملوك يصطفيك من بين خلقه؛ ليثني عليك بهذا الخطاب العظيم، وتدور بينك وبينه هذه المناجاة وهذا الحوار العظيم، لماذا غفلت القلوب عن هذا؟ لماذا نسيت هذا المقام العظيم، وهذا الاصطفاء الكبير من الله ﷻ؟

ولولا الحجب الكثيفة على قلوبنا من الذنوب لطارت فرحاً وشوقاً للتلذذ بهذا الخطاب الرباني العظيم، ولشعر المؤمن بخشوع عجيب في صلاته وهو يتلذذ بذلك، ولشعر بعظمة المناجاة بينه وبين الله العظيم.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٩) ح(٥٠)، ومسلم (١/ ٣٦) ح(٨).

٤- إذا رسخ في قلب العبد أهمية وعظمة هذا الدعاء﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وأنه من أعظم الأدعية وأهمها على الإطلاق، حينها يقبل القلب عليه مستشعراً لفقره وحاجته لربه في أن يحقق له مطلبه ويجيب دعوته، والتي متى ما أجيبت نال سعادة الدارين، ولتكرار هذه الدعوة في كل ركعة من الصلاة سر عظيم، اسأل الله ان يوفقني للإشارة إليه في الفقرة الآتية:

أ- فينبغي على المسلم أن يشعر بعظمة هذا الدعاء الذي يردده في كل يوم فقط في الفرائض سبع عشرة مرة﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وهذا يشعر بعظيم أهميته في حياة المسلم؛ بل هو من أعظم ما يدعو به في نهاره وليلته؛ لأن هذا الدعاء يتضمن سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم، وكذلك سؤاله الثبات على الهداية إلى أن يلقى ربه، ويختم له بالحسنى، وهو في هذه الدنيا على خطر عظيم، فالقلب يتقلب، وشياطين الأنس والجن متربصة به تنتظر زلته عن الصراط ليستثمروها، وفي المقابل نفس امّارة بالسوء، والصراط المستقيم على صعوبته، بجواره طرق مزينة مفروشة بالشهوات المحببة للنفوس، فالخطر عظيم، فهنا يظهر أهمية وعظمة هذا الدعاء في كل ركعة، والله الموفق والمعين.

ب- قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره:" ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله إلى ذلك؛ فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق"[(١)].

ت- ولهذا لا يحسن بالمسلم أن يغفل عن ذلك، بسبب تكرار هذا الدعاء، بل ينبغى أن يكون حاضر القلب، يجاهد نفسه على ذلك؛ ليتحقق أثر هذا الدعاء العظيم عليه ثباتًا على الحق إلى أن يلق الله، وصبرًا على ما يلقاه في طريقه إلى الله.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ١٣٩).

ث- **ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: "ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة:** ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته فلم يصبه شر لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ والذنوب من لوازم النفس؛ وهو محتاج إلى الهدى كل لحظة؛ وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب؛ ويدخل في ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه؛ ولهذا أمر به في كل صلاة لفرط الحاجة إليه، وإنما يعرف بعض قدره من اعتبر أحوال نفسه؛ ونفوس الإنس والجن المأمورين بهذا الدعاء؛ ورأى ما فيها من الجهل والظلم الذي يقتضي شقاءها في الدنيا والآخرة؛ فيعلم أن الله تعالى بفضله ورحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير المانعة من الشر"[(١)].

ج- وقال ابن القيم رحمه الله عن دعاء الفاتحة: «كانت حاجته إلى سؤال الهداية أعظم الحاجات، وفاقته إليها أشد الفاقات، ففرضَ عليه الرب الرحيم هذا السؤال كل يوم وليلة في أفضل أحواله وهي الصلوات الخمس مراتٍ متعددة، لشدة ضرورته وفاقته إلى هذا المطلوب»[(٢)].

ح- وقال السعدي رحمه الله: "فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك"[(٣)].

خ- وكذلك يحضر قلبه عند التأمين، فهو كلمة بمعنى: "اللهم استجب" أي: استجب هذا الدعاء، وليتذكر وهو يقول: "آمين" حديث النبي ﷺ: «إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[(٤)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٢١٥- ٢١٦).

(٢) الكلام على مسألة السماع (١/ ١٣٠).

(٣) تفسير السعدي(٣٩).

(٤) أخرجه البخاري (٨/ ٨٥)ح(٦٤٠٢)، ومسلم واللفظ له (١/ ٣٠٧) ح(٤١٠).

السبب العاشر: أن يشعر ويستحضر المصلي عند تكبيرة الإحرام وفي بقية صلاته بأنه يناجي ربه، وأن الله قد نصب وجهه الكريم ﷻ لوجه المصلي، فلا ينبغي له أن يلتفت عن ربه بلقبه ووجهه:

وبوّب ابن خزيمة فقال رحمه الله: "باب الأمر بالخشوع في الصلاة، إذ المصلي يناجي ربه، والمناجي ربه يجب عليه أن يفرغ قلبه لمناجاة خالقه ﷻ، ولا يشغل قلبه التعلق بشيء من أمور الدنيا يشغله عن مناجاة خالقه"(١).

ومن الأحاديث في ذلك:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى نُخَامَةً فِي القِبْلَةِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ، فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلاَتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ» الحديث(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الظُّهْرَ، فَلَمَّا سَلَّمَ نَادَى رَجُلًا كَانَ فِي آخِرِ الصُّفُوفِ، فَقَالَ: «يَا فُلَانُ، أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ؟! أَلَا تَنْظُرُ كَيْفَ تُصَلِّي؟! إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي إِنَّمَا يَقُومُ يُنَاجِي رَبَّهُ، فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ يُنَاجِيهِ، إِنَّكُمْ تَرَوْنَ أَنِّي لَا أَرَاكُمْ، إِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى مِنْ خَلْفِ ظَهْرِي كَمَا أَرَى مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ»(٣).

---

(١) صحيح ابن خزيمة (١/ ٢٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٩٠) ح (٤٠٥)، ومسلم(١/ ٣٩٠) ح (٥٥١).

(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١/ ٢٧١) ح (٤٧٤)، والحاكم (١/ ٣٦١) ح (٨٦١) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٣٥٣) ح (٥٤١).

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى بُصَاقًا فِي جِدَارِ القِبْلَةِ، فَحَكَّهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي، فَلاَ يَبْصُقُ قِبَلَ وَجْهِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ إِذَا صَلَّى»[1].

وهذا السبب مرتبط بالسبب الذي يليه.

(١) أخرجه البخاري(١/ ٩٠) ح (٤٠٦)، ومسلم (١/ ٣٨٨) ح (٥٤٧).

السبب الحادي عشر: من أسباب الخشوع في الصلاة عدم الالتفات عن الله في الصلاة بقلبه أو بوجهه، وأن يشعر في قلبه بالخجل والوجل من الله والحياء منه أن ينصرف عنه في صلاته، يقول ﷺ: «فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ» الحديث(١).

قال ابن رجب رحمه الله: "والالتفات نوعان:

أحدهما: التفات القلب إلى غير الصلاة ومتعلقاتها، وهذا يخل بالخشوع فيها.

والثاني: التفات الوجه بالنظر إلى غير ما فيه مصلحة الصلاة"(٢).

وكثير يقع الخلل من المصلين في النوع الأول من الالتفات وهو التفات القلب عن الله، وهو الذي يخل بالخشوع، أما النوع الثاني، وهو التفات الوجه فقليل ما يقع من المصلي.

وعلى هذا فلا بد من مجاهدة القلب على الحضور في الصلاة وعدم التفاته عن الله، قال تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ويذكر الذهبي عن ثابت البناني قَالَ: "كَابَدْتُ الصَّلاَةَ عِشْرِيْنَ سَنَةً، وَتَنَعَّمْتُ بِهَا عِشْرِيْنَ سَنَةً"(٣).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٨/ ٤٠٥) ح (١٧١٧٠)، والترمذي واللفظ له (٥/ ١٤٨) ح (٢٨٦٣) وقال: "حسن صحيح غريب"، وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٩١٤) ح (١٨٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٣٥٨) ح (٥٥٢)، وقال محقق المسند ح (١٧١٧٠) "حديث صحيح".

(٢) فتح الباري (٦/ ٤٤٧) لابن رجب.

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٥/ ٢٢٤).

السبب الثاني عشر: من أسباب الخشوع في الصلاة أن يجاهد نفسه في صلاته، فيقبل على صلاته، فلا يحدث نفسه بشيء من أمور الدنيا وهو واقف بين يدي ربه في صلاته.

عَنْ حُمْرَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ أَنَّهُ رَأَى عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ دَعَا بِوَضُوءٍ، فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ إِنَائِهِ، فَغَسَلَهُمَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَدْخَلَ يَمِينَهُ فِي الوَضُوءِ، ثُمَّ تَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ وَاسْتَنْثَرَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلاَثًا وَيَدَيْهِ إِلَى المِرْفَقَيْنِ ثَلاَثًا، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ كُلَّ رِجْلٍ ثَلاَثًا، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَوَضَّأُ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، وَقَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[1].

وفي هذا الحديث إشارة مهمة إلى أمرين:

الأول: مجاهدة النفس على ما يحصل لها من أمور يستغلها الشيطان، وهي حديث النفس بأمور الدنيا التي يشغله بها الشيطان في صلاته.

الثاني: أن العبد يستطيع أن يتغلب على حديث نفسه بأمور الدنيا في صلاته بحضور القلب، والشعور بعظمة الموقف بين يدي الله، والدعاء الذي يلح فيه على ربه أن يقطع عنه هذه الوساوس النفسية التي يستثمرها الشيطان، ومن جاهد نفسه وجد لذة الصلاة والراحة فيها، قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ونختم بذكر فائدة تتعلق بما سبق من الأحاديث ذكرها ابن رجب، فيقول رحمه الله:

"وكأن مقصود النبي ﷺ بذكر هذا: أن يستشعر المصلي في صلاته قرب الله منه، وأنه بمرأى منه ومسمع، وأنه مناج له، وأنه يسمع كلامه ويرد عليه جواب مناجاته له، كما في صحيح

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٤٤) ح (١٦٤)، ومسلم (١/ ٢٠٤) ح (٢٢٦).

مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي» وذكر رده عليه في آيات الفاتحة إلى آخرها.

فمن استشعر هذا في صلاته أوجب له ذلك حضور قلبه بين يدي ربه، وخشوعه له، وتأدبه في وقوفه بين يديه، فلا يلتفت إلى غيره بقلبه ولا ببدنه، ولا يعبث وهو واقف بين يديه، ولا يبصق أمامه، فيصير في عبادته في مقام الإحسان، يعبد الله كأنه يراه"[(١)][(٢)].

---

(١) فتح الباري لابن رجب (٣/ ١١٠-١١١).

(٢) وإذا أردت التوسع في هذا الموضوع المهم فيمكن أن ترجع إلى كتابي(أثر عمل القلب على عبادة الصلاة) على الشبكة.

ثانياً: أثر الصلاة الخاشعة على زكاة القلب.

١- راحة القلب.

٢- نفور القلب من الفحشاء والمنكر.

٣- الاستقرار وطمأنينة القلب.

٤- تطهير القلب من الأمراض والآفات.

المسألة الثانية: الزكاة وأثرها على القلب:

إن لهذه الفريضة أثرًا على صلاح القلب، إذا قام بها العبد وفق أمر الله مخلصًا فيها لله رب العالمين، وتحققت شروط وجوبها.

وقد ذكر الكلام عن هذه الفريضة وأثرها في زكاة القلب بتفصيل واسع في كتابي(أثر عمل القلب على الزكاة والصدقة)[1].

المسألة الثالثة: الصيام وأثره على القلب[2]:

الصيام عبادة عظيمة لها أثر كبير على حياة المسلم، ولذا افترضه الله على هذه الأمة لتحقيق هدف عظيم، وهو التقوى، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٨٣].

ومن فضائل الصوم:

ما ورد عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ ﷻ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ، فَلَا يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ»[3].

---

(١) ينظر على الشبكة.

(٢) من أراد التوسع في هذا الموضوع وعلاقته بالقلب فلينظر كتابي(أثر عمل القلب على عبادة الصوم) على الشبكة.

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٢٦) ح (١٩٠٤)، ومسلم (٢/ ٨٠٧) ح (١١٥١).

وعَنْ سَهْلٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ: الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ»[1].

والأدلة على فضل الصوم كثيرة.

أما آثار الصوم على زكاة القلب، فمنها ما يلي على سبيل الإجمال:

١- حصول التقوى.

٢- الإخلاص.

٣- حصول الصبر.

٤- مراقبة الله.

٥- الورع.

٦- مجاهدة النفس.

٧- الرحمة والشفقة على الفقراء.

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٢٥) ح (١٨٩٦)، ومسلم (٢/ ٨٠٨) ح (١١٥٢).

المسألة الرابعة: الحج وأثره على القلب[1]:

الحج مدرسة تربوية عظيمة، تجمع بين العبادة البدنية والمالية، ولها أثر كبير على صلاح القلب.

فضل الحج:

عن أَبَي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةُ»[3].

والأحاديث في فضله كثيرة.

أما أثره على زكاة القلب وصلاحه، فهو عظيم، ومن ذلك:

١- أنه يثمر الصبر.

٢- تعظيم شعائر الله التي تثمر تقوى القلوب.

٣- تحقيق التوحيد في القلب وتطهيره من الشرك.

٤- أنه يثمر محبة الله والخوف والرجاء.

---

(١) من أراد التوسع في هذا الموضوع وعلاقته بالقلب فلينظر كتابي(أثر عمل القلب على عبادة الحج والعمرة) على الشبكة.

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له (٢/ ١٣٣) ح (١٥٢١)، ومسلم (٢/ ٩٨٣) ح (١٣٥٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٢) ح (١٧٧٣)، ومسلم (٢/ ٩٨٣) ح (١٣٤٩).

المطلب الثاني: التقرب إلى الله بالدعاء، وفيه مسائل[1].

المسألة الأولى: مكانة الدعاء.

ومما يدل على المكانة العظيمة للدعاء قول النبي ﷺ: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ»[2].

وأفاد الملا على القاري رحمه الله في شرحه لهذا الحديث بأن الدعاء: "هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تسمى عبادة لدلالته على الإقبال على الله، والإعراض عما سواه، بحيث لا يرجو ولا يخاف إلا إياه، قائمًا بوجوب العبودية، معترفًا بحق الربوبية، عالمًا بنعمة الإيجاد، طالبًا لمدد الإمداد على وفق المراد وتوفيق الإسعاد"[3].

المسألة الثانية: فضل الدعاء:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة: ١٨٦].

---

(١) من أراد التوسع في هذا الموضوع وعلاقته بالقلب فلينظر كتابي(أثر عمل القلب على عبادة الذكر والدعاء) على الشبكة.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/ ٣٤٠) ح (١٨٣٩١)، وأبو داود (٢/ ٧٦) ح (١٤٧٩)، والترمذي (٥/ ٣٧٥) ح (٣٢٤٧) وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٨) ح (٣٨٢٨)، والحاكم (١/ ٦٦٧) ح (١٨٠٢) وصححه، وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع(١/ ٦٤١) ح (٣٤٠٧)، وقال محقق المسند (٣٠/ ٣٤٠) ح (١٨٣٩١): "إسناده صحيح".

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٥٢٧).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ»(١).

وكان من أكثر أدعية النبي ﷺ كما يقول أَنَس ﷺ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ »(٢).

المسألة الثالثة: أما أثر الدعاء على صلاح القلب فأثره عظيم، ومن ذلك:

١- الشعور بمعية الله له وقربه منه.

٢- قوة القلب وثباته وشجاعته.

٣- صلاح القلب وثباته على الحق.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٤/ ٣٦٠) ح (٨٧٤٨)، والترمذي (٥/ ٤٥٥) ح (٣٣٧٠) وقال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ القَطَّانِ.."، وابن ماجه(٢/ ١٢٥٨) ح (٣٨٢٩)، وحسن إسناده الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٥١) ح (٥٣٩٢)، وكذلك شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لسنن ابن ماجه (٥/ ٦) ح (٣٨٢٩).

(٢) أخرجه أحمد ط الرسالة (١٩/ ١٦٠) ح(١٢١٠٧)، والترمذي (٤/ ٤٤٨) ح(٢١٤٠) وقال الترمذي: "هذا حديث حسن"، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٠) ح(٣٨٣٤)، وحكم الألباني بصحته في مشكاة المصابيح(١/٣٧) ح(١٠٢)، وقال محقق المسند (١٩/ ١٦٠):"إسناده قوي على شرط مسلم".

المطلب الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1]، وأثره على زكاة القلب، وفيه عدة مسائل.

توطئة.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل عظيم من أصول الإسلام ومبانيه العظام، وهو أحد أسهم الإسلام، وقد خاب من لا سهم له، كما قال حذيفة ﷺ: " الإسلام ثمانية أسهم: الصلاة سهم، والزكاة سهم، والجهاد سهم، وصوم رمضان سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، والإسلام سهم، وقد خاب من لا سهم له"[2].

وقال النووي رحمه الله عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه»[3].

وقال الغزالي رحمه الله عنه: «فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه، وأهمل علمه وعمله؛ لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة،

---

(١) ومن أراد التوسع فله أن يرجع إلى الكتب الآتية:

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- ابن تيمية.
- الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - ابن داود الحنبلي.
- تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الجاهلين.
- فقه الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- قواعد مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (بترقيم الشاملة آليا).
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء الكتاب والسنة.
- القول البين الأظهر في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (بترقيم الشاملة آليا).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في موقعين: الأول (٤/ ٢٣٠ ت الحوت) رقم الأثر(١٩٥٦١)، والثاني (٦/ ١٥٨ ت الحوت) رقمه (٣٠٣١٣).

(٣) شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٤).

واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد»[1].

معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وينتظم معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أن كل ما جاء الأمر به في الكتاب والسنة، أو الندب إليه والحث عليه، أو الثناء على أهله، أو الإخبار بأنه مما يحبه الله تعالى ويرضاه، ويكرم أهله بالثواب العاجل والآجل، فهو من المعروف الذي يؤمر به.

وما ورد النهي عنه في الكتاب والسنة، والتحذير منه، وبيان عظيم ضرره، وكبير خطره في الدنيا والآخرة، أو جاء ذم أهله ووعيد فاعله بالسخط والعذاب والخزي والعار، ودخول النار ونحو ذلك فهو من المنكر الذي ينهى عنه[2].

وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أثر كبير في زكاة القلب، وسيأتي له مزيد بيان في نهاية المطلب.

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٠٦).

(٢) ينظر: تذكرة أولي الغير بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (ص ١٢-١٣).

وينظر: قواعد مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص١٢ بترقيم الشاملة آليا).

المسألة الأولى: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحكمه[1].

أولاً: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال نصوص الكتاب والسنة.

ودونك بعض الأدلة في ذلك:

١- **هو مع الإيمان أعظم سبب لخيرية هذه الأمة، قال تعالى:** ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٢- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب نجاة العبد في الدنيا والآخرة، قال تعالى:** ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

٣- **وهو من أسباب النصر والتمكين في الدنيا، قال تعالى:** ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١].

٤- **وهو أحد صفات المؤمنين البارزة التي قدمها الله على بقية الصفات لعظيم مكانتها، قال تعالى:** ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

---

(١) ينظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء الكتاب والسنة (ص٤٠ وما بعدها).

٥- **ومما يدل على مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العظيمة قوله ﷺ**: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»(١).

٦- **الأمر بالعروف والنهي عن المنكر سفينة نجاة المجتمع من نزول عقوبة الله بهم، ومن أعظم أسباب النجاة للأمة من الهلاك**، قال ﷺ:«مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»(٢).

واكتفي بما سبق لأن النصوص الدالة على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومكانته العظيمة في دين الإسلام كثيرة.

ثانياً: حكمه.

لقد تظافرت نصوص الكتاب والسنة ودل الإجماع على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن ذلك ما سبق من النصوص، ونضيف هنا:

١- قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

قال الشوكاني رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: «وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٠)ح(٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٣٩)ح(٢٤٩٣).

الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها»[1].

٢- **من أسباب لعن الله بني إسرائيل على لسان الأنبياء تركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، فقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٨-٧٩].

وقال ابن عطية رحمه الله معلقاً على الآيتين: «والإجماع على أن النهي عن المنكر واجب لمن أطاقه ونهى بمعروف وأمن الضرر عليه وعلى المسلمين، فإن تعذر على أحد النهي لشيء من هذه الوجوه ففرض عليه الإنكار بقلبه وأن لا يخالط ذا المنكر، وقال حذاق أهل العلم: ليس من شروط الناهي أن يكون سليماً من المعصية، بل ينهى العصاة بعضهم بعضاً، وقال بعض الأصوليين فرض على الذين يتعاطون الكؤوس أن ينهى بعضهم بعضاً.

واستدل قائل هذه المقالة بهذه الآية، لأن قوله: ﴿ يَتَنَاهَوۡنَ﴾ و﴿ فَعَلُوهُۚ﴾ يقتضي اشتراكهم في الفعل وذمهم على ترك التناهي»[2].

٣- **ومن السنة مما يدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحاديث كثيرة نذكر منها على سبيل المثال:**

- قوله ﷺ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[3].

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٢٣).

(٢) تفسير ابن عطية(٢/ ٢٢٤).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٥٠)ح(٤٩).

- وقوله ﷺ: "مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ"[1].
- وقوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»[2].

أقوال العلماء في حكمه:

قال النووي رحمه الله: «ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف، ثم إنه قد يتعين كما إذا كان في موضع لا يعلم به الا هو، أو لا يتمكن من إزالته إلا هو، وكمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه على منكر أو تقصير في المعروف»[3].

ويقول ابن تيمية رحمه الله: «واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض على الكفاية ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره، والقدرة هي السلطان والولاية»[4].

ويقول ابن داود الحنبلي رحمه الله: «ثمَّ اختلفوا هل هو فرض عين أو على الكفاية؟ فالجمهور على أنه فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الحرج عن الباقين، وإذا تركه

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٠)ح(٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٤٦٨)ح(٢١٦٩) وقال عنه: "هذا حديث حسن"، وحسنه الألباني في تعليقه على سنن الترمذي ح(٢١٦٩).

(٣) شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٣).

(٤) الحسبة في الإسلام، أو وظيفة الحكومة الإسلامية (ص١١).

الجميع أثم كل من علم وتمكن منه بلا عذر؛ لما سبق من قوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾.

ولم يقل: كونوا كلكم آمرين بالمعروف»[1].

ثالثاً: مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2].

وقد نص عليها الحديث، قال ﷺ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[3].

وقال ﷺ: "مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ"[4].

فقد دل الحديث على ثلاث مراتب لإنكار المنكر، وهي:

الأولى: الإنكار باليد، «وهي أقوى مراتب الإنكار وأعلاها، وذلك كإراقة الخمر، وكسر الأصنام المعبودة من دون الله، ومنع من أراد الشر بالناس وظلمهم من تنفيذ مراده، وكإلزام الناس بالصلاة، وبحكم الله الواجب اتباعه ونحو ذلك.

---

(١) الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – ابن داود الحنبلي (ص١١١).

(٢) ينظر: قواعد مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص٢٩ وما بعدها بترقيم الشاملة آليا)، القول البين الأظهر في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص١٤٧ بترقيم الشاملة آليا).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٥٠)ح(٤٩).

(٤) أخرجه مسلم (١/ ٥٠)ح(٥٠).

وذلك لمن كان له ولاية على مرتكب المنكر كالسلطان أو من ينيبه عنه كوالي الحسبة وموظفيه كل بحسب اختصاصه وكذا المسلم مع أهله وولده، يلزمهم بأمر الله، ويمنعهم مما حرم الله، باليد إذا لم ينفع فيهم الكلام يقوم بهذا حسب الوسع والطاقة»[1].

ويقول ابن تيمية رحمه الله: «وليس لأحد أن يزيل المنكر بما هو أنكر منه؛ مثل أن يقوم آحاد الناس يريد أن يقطع السارق، ويجلد الشارب، ويقيم الحدود؛ لأنه لو فعل ذلك لأفضى إلى الهرج والفساد؛ لأن كل واحد يضرب غيره، ويدعي أنه استحق ذلك؛ فهذا مما يقتصر فيه إلى من يطاع؛ كالسلطان ونوابه»[2].

الثانية: الإنكار باللسان، إذا لم يستطع باليد وهي الدرجة الثانية بعد اليد.

«وتغيير المنكر باللسان له أربع خطوات:

الأولى: التعريف باللين واللطف.

الثانية: النهي بالوعظ والنصح والتخويف من الله تعالى.

الثالثة: الغلظة بالقول بعد عدم جدوى أسلوب اللطف واللين.

الرابعة: التهديد والتخويف.. ولكن ينبغي أن يكون هذا التهديد والتخويف في حدود المعقول عقلاً وشرعاً»[3].

ونأتي الآن إلى توضيح هذه الخطوات باختصار:

---

(١) قواعد مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص٢٩ بترقيم الشاملة آليا).

(٢) مختصر الفتاوى المصرية (٢/ ٤٤٥ ط ركائز).

(٣) قواعد مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص٦٤ بترقيم الشاملة آليا)، وراجع هذه شرح هذه الخطوات الأربع بتوسع في نفس المصدر السابق (ص٣٢-٣٨).

١- **في الخطوة الأولى يكون الإنكار بالرفق واللين واللطف والحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن،** كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٨٣]. أي قولوا لهم قولاً ليناً طيباً، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(١)، كما قال به بعض السلف في معنى الآية(٢).

فيعرف الواقع في المنكر ويدعوه إلى تركه برفق ولين ورحمة وشفقة، قال تعالى عن نبيه: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»(٣).

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ»(٤).

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير – ط ابن الجوزي (١/ ٤٧٤-٤٧٥).

(٢) نقله ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٦١، ١٦٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن البصري رحمه الله.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١١/ ٣٣) ح (٦٤٩٤)، وأبو داود واللفظ له (٤/ ٢٨٥) ح (٤٩٤١)، والترمذي(٤/ ٣٢٣) ح (١٩٢٤) وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، والحاكم(٤/ ١٧٥) ح (٧٢٧٤) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٦١) ح (٣٥٢٢)، وفي صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٥٤٩) ح (٢٢٥٦) قال: "حسن لغيره"، وقال محقق المسند الأرناؤوط (١١/ ٣٣) ح (٦٤٩٤): "صحيح لغيره".

(٤) أخرجه البخاري واللفظ له(٨/ ١٢) ح (٦٠٢٤)، ومسلم(٤/ ١٧٠٦) ح (٢١٦٥).

وعَنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ يَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللَّهُ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ. قَالَ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ»، قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟! قَالَ: «أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟! رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ»[(١)].

وعَنْ جَرِيرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ»[(٢)].

وعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»[(٣)].

وعَنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»[(٤)].

وغالباً هذه الخطوة تكون مع من يجهل حكم المنكر وليس عنده علم، فيقصر في فعل الأمر أو يقع في المنكر بسبب جهله، فيسلك معه في بيان الأمر أو النهي عن المنكر طريقة الرفق واللين واللطف والرحمة.

وكان النبي ﷺ لا يعيّن من فعل المنكر وإنما يعرّض، فيقول: "ما بال أقوام..."

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: رَخَّصَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَمْرٍ فَتَنَزَّهَ عَنْهُ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَغَضِبَ حَتَّى بَانَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: "مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْغَبُونَ عَمَّا رُخِّصَ لِي فِيهِ، فَوَاللهِ لَأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً"[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ١٢) ح (٦٠٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠٣) ح (٢٥٩٢).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠٣) ح (٢٥٩٣).

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠٤) ح (٢٥٩٤).

(٥) أخرجه البخاري (٨/ ٢٦)ح(٦١٠١)، ومسلم واللفظ له (٧/ ٩٠)ح(٢٣٥٦).

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، فَقَالَ: "مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا، لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"(١).

٢- وفي الخطوة الثانية من إنكار المنكر باللسان التي تكون بالموعظة والنصيحة والتخويف من الله تعالى.

وهذه الخطوة تكون مع مرتكب المنكر العارف بحكمه في الشرع، «فيستعمل معه أسلوب الوعظ والنصح والتخويف من الله تعالى، ويذكر له بعض النصوص من القرآن والسنة المشتملة على الترهيب والوعيد، كما يذكر له بعض أقوال السلف في ذلك، ويكون بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة.. وحتى لو كان عارفا لهذه النصوص فلها تأثيرها، لأن ذلك من قبل الذكرى، والله تعالى يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

ويبين له ما أعده الله للطائعين من عباده، ويذكره بالموت، وأنه ليس لمجيئه وقت محدد، بل يأتي بغتة، وربما يأتي إلى الإنسان وهو واقع في المعصية، فتكون خاتمته سيئة والعياذ بالله..ويبين له أن هدفه من نصحه وإرشاده إنما هو من أجل حبه له، وخوفه عليه من العقاب، وأنه ما فعل ذلك إلا شفقة عليه ورحمة به، وليحرص كل الحرص، أن تكون الموعظة سراً بينه وبين المنصوح، حتى لا تأخذه العزة بالإثم فيرفض قبولها، وحتى يطمئن له وتتقبل نفسه لسماع النصيحة، وحتى يعلم بحق أنه ليس للناهي هدف سوى النصيحة وإرادة الخير له»(٢).

٣- ثم الخطوة الثالثة في إنكار المنكر باللسان، وهي استخدام الغلظة في القول حين لم تجدي الخطوة الأولى ولا الثانية، فإذا لم ينفع الرفق واللين والموعظة «فحينئذ يغلظ له

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٢٩)ح(١٤٠١).

(٢) قواعد مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص٣٥-٣٦ بترقيم الشاملة آليا).

القول، ويزجره مع مراعاة قواعد الشرع في ذلك. وعليه ألا ينطق إلا بالصدق، ولا يطيل لسانه بما لا يحتاج إليه بل على قدر الحاجة»[١].

٤- **ثم تأتي الخطوة الرابعة في الإنكار باللسان التهديد والتخويف، وذلك يكون بعد أن وصل إلى حد القناعة بعدم جدوى ما سبق من الخطوات، فيقول لمرتكب المنكر:** «إن لم تنته عن هذا الفعل لأفعلنَّ بك كذا وكذا. أو لأخبرن بك السُلطات لتسجنك وتعاقبك على فعلك.

ولكن ينبغي أن يكون هذا التهديد والتخويف في حدود المعقول عقلاً وشرعاً حتى يعرف أن المنكر صادق في تهديده، لأنه لو هدده بأمور غير جائزة شرعاً وغير معقولة عرف أنه غير جاد في كلامه»[٢].

الثالثة: الإنكار بالقلب، إذا لم يستطع بلسانه، ومعناه: بغض المنكر وكرهه، وهي أضعف المراتب، وتدل على أقل درجات الإيمان، كما في الحديث: "..وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ"، وفي الحديث الآخر ".. وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ".

وقال ابن تيمية رحمه الله عن مرتبة الإنكار بالقلب: «فأما القلب فيجب بكل حال إذا لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبي ﷺ "وذلك أدنى أو أضعف الإيمان"، وقال: "ليس وراء ذلك من الايمان حبه خردل".

وقيل لأبن مسعود ﷺ من ميت الاحياء؟ فقال: "الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً"[١]، وهذا هو المفتون الموصوف بأن قلبه كالكوز مجخياً[٢] في حديث حذيفة بن اليمان ﷺ في الصحيحين "تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير" الحديث»[٣][٤].

---

(١) قواعد مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص٣٧ بترقيم الشاملة آليا).

(٢) قواعد مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص٣٨ بترقيم الشاملة آليا).

وقال أيضاً رحمه الله في بيان معنى الإنكار بالقلب: «فمن لم يكن في قلبه بغض المنكر الذي يبغضه الله ورسوله لم يكن معه من الإيمان شيء»[٥].

وقال ابن النحاس رحمه الله: «وأما الإنكار بالقلب: وهو كراهة تلك المعصية وبغضها، فلا يسقط عن مكلف بوجه من الوجوه، إذ لا عذر يمنع منه»[٦].

وقال ابن رجب رحمه الله بعد ذكره لمجموعة من الأحاديث تدل على وجوب مرتبة الإنكار بالقلب: "فدلت هذه الأحاديث كلها على وجوب إنكار المنكر بحسب القدرة عليه، وأن إنكاره بالقلب لابد منه، فمن لم ينكر قلبه المنكر، دل على ذهاب الإيمان من قلبه.

وقد روي عن أبي جحيفة، قال: قال علي: "إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد: الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فمن لم يعرف قلبه المعروف، وينكر قلبه المنكر، نكس فجعل أعلاه أسفله"[١].

---

(١) نسبه ابن تيمية لابن مسعود في عدد من كتبه، ونقله ابن أبي شيبة في المصنف(٧/ ٥٠٤ ت الحوت) رقم الأثر(٣٧٥٧٧) عن حذيفة ﷺ بلفظ آخر مقارب: قيل لحذيفة: ما ميت الأحياء؟ قال:" من لم يعرف المعروف بقلبه، وينكر المنكر بقلبه".

(٢) والكوز أناء يشرب فيه، ولكن له عروة يمسك بها، و"مجخياً" مكبوباً منكوساً.

والمعنى: أنه لا يقبل الحق وإنما ميزانه الهوى وليس الشرع.

ينظر: إغاثة اللهفان (١/ ١٥-١٦).

وينظر في معنى الكوز: تهذيب اللغة (١٠/ ١٧٥)، المخصص (٣/ ١٩٩)، لسان العرب (٥/ ٤٠٣).

(٣) يشير بهذا إلى حديث حذيفة ﷺ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ».

أخرجه مسلم (١/ ١٢٨)ح(١٤٤).

(٤) الاستقامة (٢/ ٢١٢-٢١٣).

(٥) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٦٧).

(٦) تنبيه الغافلين(ص٣٠).

وسمع ابن مسعود رجلاً يقول: هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، فقال ابن مسعود: "هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر"[٢]، يشير إلى أن معرفة المعروف والمنكر بالقلب فرض لا يسقط عن أحد، فمن لم يعرفه هلك.

وأما الإنكار باللسان واليد، فإنما يجب بحسب الطاقة، وقال ابن مسعود: "يوشك من عاش منكم أن يري منكراً لا يستطيع له غير أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره"[٣].

وفي سنن أبي داود عن العُرْس بن عميرة، عن النبي ﷺ، قال: «إذا عملت الخطيئة في الأرض، كان من شهدها، فكرهها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها، فرضيها، كان كمن شهدها»[٤]، فمن شهد الخطيئة، فكرهها بقلبه، كان كمن لم يشهدها إذا عجز عن إنكارها بلسانه ويده، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها وقدر على إنكارها ولم ينكرها؛ لأن الرضا بالخطايا من أقبح المحرمات، ويفوت به إنكار الخطيئة بالقلب، وهو فرض على كل مسلم، لا يسقط عن أحد في حال من الأحوال"[٥].

ومن الإنكار بالقلب –مع بغض المنكر– فإنه لا بد أن يخرج من المكان الذي حدث فيه المنكر، حتى لا تنزل عليه عقوبة الله معهم، وأعظم العقوبة أن يكون مثل أهل المنكر ولو كان كارهاً له، قال تعالى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٥٠٤ ت الحوت) رقم الأثر(٣٧٥٧٨).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٥٠٤ ت الحوت)رقم الأثر(٣٧٥٨١).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٥٠٤ ت الحوت)رقم الأثر(٣٧٥٨٢)، ولفظه عنده: «إنها ستكون هنات وهنات ، فبحسب امرئ إذا رأى منكراً لا يستطيع له تغييراً يعلم الله من قلبه أنه له كاره».

(٤) وهو في سنن أبي داود (٦/ ٤٠١ ت الأرنؤوط)ح(٤٣٤٥) ولفظه: " إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ، كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا – وَقَالَ مَرَّةً: «أَنْكَرَهَا» – كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا، كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا "، وحسنه الألباني في تعليقه علي سنن أبي داود، وحسن إسناده الأرناؤوط في تعليقه على سنن أبي داود (٦/ ٤٠١ ت الأرنؤوط)ح(٤٣٤٥).

(٥) جامع العلوم والحكم (ص٧٠٠ –٧٠١ت الفحل).

بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿ [النساء: ١٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿ [الأنعام: ٦٨].

المسألة الثانية: قواعد وضوابط وآداب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ونجملها في الأمور الآتية:

أولاً: هذه بعض القواعد المهمة، نقلتها من خاتمة كتاب (قواعد مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

١- "إن كون الشئ معروفاً أو منكراً ليس من شأن الآمر والناهي، وإنما الميزان في ذلك هو ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، على فهم السلف الصالح لهذه الأمة من اعتقاد أو قول أو فعل.

٢- من القواعد العامة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر عالماً بما يأمر به وبما ينهى عنه.. يعلم ما هو المنهي عنه شرعاً حتى ينهى عنه، ويعلم ما هو المأمور به شرعاً حتى يأمر الناس به..

٣- بيان أن للمنكر شروطاً يجب على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يراعيها عند إزالته للمنكر وهي:

أ -التحقق من كونه منكراً.

ب- أن يكون المنكر موجوداً في الحال..

٤- من القواعد العامة التي تحكم القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معرفة مراتب إنكار المنكر وضوابطها، وذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون بقدر الاستطاعة، فإن استطاع المسلم تغيير المنكر باليد كان ذلك هو الواجب في حقه، فإن عجز عن التغيير باليد وكان باستطاعته النهي باللسان كان ذلك هو الواجب عليه، وتغيير المنكر باللسان له أربع خطوات:

الأولى: التعريف باللين واللطف.

الثانية: النهي بالوعظ والنصح والتخويف من الله تعالى.

الثالثة: الغلظة بالقول بعد عدم جدوى أسلوب اللطف واللين

الرابعة: التهديد والتخويف.. ولكن ينبغي أن يكون هذا التهديد والتخويف في حدود المعقول عقلاً وشرعاً.

فإن عجز الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر عن الإنكار باليد واللسان، انتهى إلى الإنكار بالقلب، وهذا الواجب لا يسقط عن المؤمن بوجه من الوجوه، وليس هناك من التغيير ما هو أقل منه، وهو آخر حدود الإيمان، وإن الإنكار بالقلب يقتضي مفارقة المنكر وأهله، ولا بد للآمر بالمعروف الناهي عن المنكر الداعي إلى الله تعالى على علم وبصيرة من معرفة مراتب إنكار المنكر وضوابطها وخطواتها، والالتزام بالعمل بها، حتى ينجح في عمله..

٥- ومن القواعد التي تحكم القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يبدأ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر بالأهم قبل المهم: وذلك بأن يبدأ بإصلاح أصول العقيدة، فيأمر بالتوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، وينهى عن الشرك والبدع والشعوذة، ثم يأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ثم بقية الفرائض، وترك المحرمات، ثم أداء السنن، وترك المكروهات.

٦- ومن القواعد المهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اعتبار تحصيل المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتعطيلها أو تقليلها، فيشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن لا يؤدي إلى مفسدة أعظم من المنكر الذي يُراد تغييره، أو مثله، فإن كان إنكار المنكر يستلزم حصول منكر أعظم منه، فإنه عندئذ يسقط وجوب الإنكار، بل لا يصح ولا يسوغ الإنكار في هذه الحالة.

٧- ومن القواعد المهمة أنه على الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر التأكد من كل أمر، والتثبت بشأنه، وعدم التسرع والعجلة، والحرص على الرفق والأناة بالناس وملاطفتهم حال أمرهم أو نهيهم، وأن ينظر إلى المصالح العامة وما يترتب على الكلمة التي يقولها من عواقب، وأن يحترم علماءه ويسمع لكلامهم، ويأخذ بتوجيهاتهم ويطيع ولاة أمره في غير معصية.

وليعلم الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر الداعي إلى الله تعالى أن التسرع والعجلة وعدم النظر في العواقب إن ذلك يسبب الفشل والندامة له ولدعوته"[1].

ثانياً: إشكال في فهم آية يستدل بها على غير موضعها، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، **قد يفهم البعض منها أنه لا يلزم المسلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد نبه على هذا الفهم الخاطئ أبو بكر** ﷺ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]،.. وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ» وَقَالَ عَمْرٌو: عَنْ هُشَيْمٍ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ»[2].

قال النووي رحمه الله: «وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة وهو أيضا من النصيحة التي هي الدين..وأما قول الله ﷻ: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فليس مخالفاً لما ذكرناه؛ لأن المذهب الصحيح عند المحققين في معنى الآية: أنكم إذا فعلتم ما

---

(١) قواعد مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص ٦٣ -٦٦بترقيم الشاملة آليا).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٢١ ط الرسالة)ح(٥٣)، وأبو داود واللفظ له (٤/ ١٢٢ ت محيي الدين عبد الحميد)ح(٤٣٣٨)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٧ ت عبد الباقي)ح(٤٠٠٥)، والترمذي (٥/ ٢٥٦)ح(٣٠٥٧) وقال: "حديث حسن صحيح"، والنسائي في السنن الكبرى ط الرسالة (١٠/ ٨٨)ح(١١٠٩٢)، وأبو يعلى في مسنده – ت السناري (١/ ١٦٥)ح(١٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٥٧٨)ح(٢٣١٧)، وقال محقق مسند أحمد (١/ ٢٢١ ط الرسالة): «إسناده صحيح على شرط الشيخين»، وصحح إسناده أحمد شاكر في مسند أحمد (١/ ١٨٨ ت أحمد شاكر).

كلفتم به فلا يضركم تقصير غيركم مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وإذا كان كذلك فمما كلف به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا فعله ولم يمتثل المخاطب، فلا عتب بعد ذلك على الفاعل لكونه أدى ما عليه، فإنما عليه الأمر والنهي لا القبول، والله أعلم»[(١)].

وقال الشنقيطي في تفسيره: «قد يتوهم الجاهل من ظاهر هذه الآية الكريمة عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن نفس الآية فيها الإشارة إلى أن ذلك فيما إذا بلغ جهده فلم يقبل منه المأمور، وذلك في قوله: ﴿ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ ؛ لأن من ترك الأمر بالمعروف لم يهتد..ومما يدل على أن تارك الأمر بالمعروف غير مهتد أن الله تعالى أقسم أنه في خسر في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، فالحق وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبعد أداء الواجب لا يضر الآمر ضلال من ضل، وقد دلت الآيات كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، والأحاديث على أن الناس إن لم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر عمهم الله بعذاب من عنده..»، ثم ذكر الأحاديث على ذلك[(٢)].

---

(١) شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٢-٢٣).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/ ٢٠٠ -٢٠٣ط عطاءات العلم).

ثالثاً: هل تشترط العدالة في من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

والقول الذي يذهب إليه أكثر العلماء أن العدالة ليست بشرط فيمن يقوم بالأمر والنهي، ولكن الأكمل والأفضل لمن يأمر وينهى أن يجتهد في امتثاله لما يأمر به واجتنابه لما ينهي عنه؛ حتى لا يعرض نفسه لعقوبة ترك امتثال الأمر وارتكاب النهي، لأنه إذا فعل الأمر وترك النهي كان قدوة حسنة وهذا ادعى لقبول أمره ونهيه، ومما ينبغي التنبيه عليه أنه لا يحتج على ترك الأمر والنهي والنصح بما ورد من أحاديث الوعيد بالنار في مخالفة الأمر والنهي[1]، ولا شك أنه ينبغي على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون قدوة حسنة ليكون لأمره ونهيه أثر، لكن لا يسقط الأمر والنهي لأجل قصور الآمر والناهي وتفريطه، بل يجب الأمر والنهي بحسب وسعه، ولا يسقط عنه حتى لو كان يقع فيما ينهى عنه أو يترك ما يأمر به، وقال القرطبي رحمه الله: "وليس من شرط الناهي أن يكون عدلًا عند أهل السنة، خلافًا للمبتدعة حيث تقول: لا يغيره إلا عدل، وهذا ساقط، فإن العدالة محصورة في القليل من الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عام في جميع الناس"[2].

وقال ابن عطية معلقاً على قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٨-٧٩]،قال رحمه الله: «وقال حذاق أهل العلم: ليس من شروط الناهي أن يكون سليماً من المعصية، بل ينهى

---

(١) كما في قوله ﷺ:«يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلاَنُ، مَا شَأْنُكَ؟! أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟! قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ» أخرجه البخاري (٤/ ١٢١) ح (٣٢٦٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٠) ح (٢٩٨٩).

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٤٧).

العصاة بعضهم بعضاً، وقال بعض الأصوليين فرض على الذين يتعاطون الكؤوس أن ينهى بعضهم بعضاً.

واستدل قائل هذه المقالة بهذه الآية، لأن قوله: ﴿ يَتَنَاهَوْنَ﴾ و﴿ فَعَلُوهُۚ﴾ يقتضي اشتراكهم في الفعل وذمهم على ترك التناهي»[1].

وقال النووي رحمه الله: "قال العلماء: ولا يشترط في الآمر والناهي أن يكون كامل الحال، ممتثلًا ما يأمر به مجتنبًا ما ينهى عنه، بل عليه الأمر وإن كان مخلًّا بما يأمر به، والنهي وإن كان متلبسًا بما ينهى عنه؛ فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاه، فإذا أخلَّ بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر؟!"[2].

قال الحسن لمطرف بن عبد الله: "عظ أصحابك، فقال: إني أخاف أن أقول ما لا أفعل، قال: يرحمك الله، وأيُّنا يفعل ما يقول؟! ويود الشيطان أنه قد ظفر بهذا، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر"[3].

وقال مالك، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن: سمعت سعيد بن جبير يقول: "لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر". قال مالك: "وصدق؛ من ذا الذي ليس فيه شيء؟!"[4].

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في نصيحة وجه لأحد أبنائه قال في خاتمتها: «فإني لأعظك بهذا وإني لكثير الإسراف على نفسي، غير محكم لكثير من أمري، ولو أن المرء لم يعظ أخاه حتى يحكم نفسه، ويكمل في الذي خلق له لعبادة ربه، إذا تواكل الناس الخير،

---

(١) تفسير ابن عطية(٢/ ٢٢٤).

(٢) شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٣).

(٣) نقله القرطبي في تفسيره عن الحسن (٣٦٧).

(٤) نقله القرطبي في تفسيره عن سعيد بن جبير ومالك(١/ ٣٦٧-٣٦٨).

وإذا يرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستحلت المحارم، وقل الواعظون، والساعون لله بالنصيحة في الأرض»[1].

وقال ابن كثير رحمه الله بعد أن قرر أنه ينبغي على العالم أن يفعل ما يأمر به من المعروف ولا يتخلف عنه، إلى أن قال رحمه الله: «والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه»[2].

وقال ابن رجب رحمه الله: "ومع هذا كلّه فلا بدّ للناس من الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والوعظ والتذكير، ولو لم يعظ النّاس إلا معصوم من الزّلل، لم يعظ الناس بعد الرسول ﷺ أحد، لأنّه لا عصمة لأحد بعده.

لئن لم يعظ العاصين من هو مذنب ... فمن يعظ العاصين بعد مُحَمَّد؟

وروى ابن أبي الدّنيا بإسناد فيه ضعف، عن أبي هريرة، عن النّبيّ ﷺ، قال: «مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كلّه، وانهوا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه كلّه»[3][4].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – ط السعادة (٥/ ٢٧٦-٢٧٧).

(٢) تفسير ابن كثير – ت السلامة (١/ ٢٤٧).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(ص٦١)ح(١٩)، والطبراني في المعجم الصغير (٢/ ١٧٥)ح(٩٨١)والمعجم الأوسط له (٦/ ٣٦٥)ح(٦٦٢٨)، وضعفه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء(ص٨١١)، وضعفه إسناده ابن رجب في لطائف المعارف(ص٤٢ ت عوض الله)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٧/ ٢٧٧)ح(١٢١٨٥).

(٤) لطائف المعارف(ص٤٢ ت عوض الله).

المسألة الثالثة: آثار ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد سبق جمع من الأدلة التي تبين عاقبة إهمال هذا العمل العظيم أو تركه، ونشير إليها هنا باختصار:

١- **يحرم المفرطون في الأمر والنهي من أعظم أسباب خيريتهم، لأن خيرية الأمة مرتبطة به، كما سبق في الآية،** ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٢- **ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب لنزول العذاب، كما قال تعالى:** ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَئِيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وفي المقابل وجود الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر سبب للإنجاء من عذاب الله وعدم الهلاك، كما في آية الأعراف السابقة ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾، وكما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

٣- **سبب لنزول لعنة الله، قال تعالى:** ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٨-٧٩].

٤- **تركه سبب لزوال الإيمان،** قال ﷺ:«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»(١).

وقال ﷺ: "مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ"(٢).

٥- **سبب لنزول العقوبات وعدم استجابة الدعاء،** قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»(٣).

٦- إذا ترك الصالحون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثر الخبث وظهر، وأدى ذلك إلى أن يهلك الله الجميع حتى الصالحين، قَالَتْ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ: « خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَزِعًا مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ. وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا. قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٠)ح(٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٥٠)ح(٥٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٤/ ٤٦٨)ح(٢١٦٩) وقال عنه: "هذا حديث حسن"، وحسنه الألباني في تعليقه على سنن الترمذي ح(٢١٦٩).

(٤) أخرجه البخاري (٤/ ١٣٨)ح(٣٣٤٦)، ومسلم واللفظ له (٨/ ١٦٦)ح(٢٨٨٠).

المسألة الرابعة: آثاره على زكاة القلب.

أولاً: أمور تتعلق بالقلب ينبغي أن يراعيها الذي يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نفسه قبل قيامه بهذا العمل العظيم حتى يؤتي ثماره المباركة في الدنيا والآخرة.

انقلها من كتاب(القول البين الأظهر في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[1]:

"**الأمر الأول**: ينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يلاحظ بباطنه لطف الله تعالى به، حيث حفظه من مثل المعصية، ولو شاء لكان الأمر بالعكس.

الأمر الثاني: أن يلاحظ بباطنه أنه لا يدري هل يدوم له هذا الحفظ، أو يفتن والعياذ بالله، وأنه كم من تائب عابد رجع إلى المعاصي فقبض عليها، وكم من عاصٍ مسرف تاب الله عليه فجب توبته ما سلف قبلها، فقبض مغفورًا له، فيسأل الله الثبات والاستقامة، ويكثر من قول: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، كما كان النبي ﷺ يكثر من هذا الدعاء، فيكون متأسيًا بنبيه.

الأمر الثالث: أن يكون بعيدًا عن الكبر والرياء والاحتقار والازدراء، فلا يرى لنفسه عزة وعلوًّا على المأمور والمنهي، بالعلم والتنزّه عن مثل هذه المعصية، ولا يرى احتقار المنكر عليه بالجهل والوقوع في المعصية وإزدراء لذلك، حذرًا من أن يكون قصده الباطن بكلامه إظهار رتبته بشرف العلم والعفة، وإذلال صاحبه بنسبته إلى خسة الجهل ورذالة المعصية، فإن علم من نفسه أن هذا هو الباعث له على الإنكار، فقد وقع في منكر أقبح في نفسه من المنكر الذي أنكره، ومثله في هذا كمثل من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه، وهو كمن يأمر بالمعروف ولا يأتيه، وينهى عن المنكر ويأتيه، وهذه مذلة عظيمة وغرور من الشيطان.

---

(١) ينظر: تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الجاهلين (ص٥٠-٥١).

الأمر الرابع: ينبغي للمحتسب أن يمتحن نفسه ليتبين له سلامتها من الرياء والعجب وحب الظهور، حينما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهو أن يكون قصده في الباطن زوال المنكر وحصول المعروف، سواء حصل ذلك بسببه أو بسبب غيره، ويرى أن هذا الواجب ثقيل وشاق، ولو كفاه غيره وقام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه لا يغضب ولا يرى من نفسه كراهية، بل يفرح بزوال المنكر وحصول المعروف، ويود من نفسه أن لو ساعده وشاركه ليحصل على الأجر، ويكون في عداد الدعاة إلى الخير والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فهذه علامات تدل على أنه مخلص، وإن فقدت هذه العلامات ورأى من نفسه كراهية لزوال المنكر على يد غيره، ويثقل عليه أن يرجع هو عن المنكر بنفسه، ويرى من نفسه مسابقة إلى الإنكار، خشية أن يسبقه غيره فيزول على يديه المنكر، لا يقصد المبادرة إلى أداء هذا الواجب العظيم غيرةً على محارم الله وإشاعةً للخير في أرض الله، فإن كان كذلك فليتق الله ولينكر على نفسه أولًا.

الأمر الخامس: ينبغي للمحتسب أن لا يلتفت إلى الوساوس والأوهام التي يلقيها الشيطان، بل يدفعها ويقابلها بصريح الإيمان، وذلك مثل ما يلقيه الشيطان في نفس الآمر والناهي من الخوف والجزع وتقدير وقوع المحذور، من الضرب أو القتل، أو أخذ المال، أو العزل عن المنصب، فإن هذه التقديرات كلها في الحقيقة من وساوس الشيطان، ليثبطه عن القيام بأداء هذا الواجب، ويجعله في عداد الساكتين المداهنين، ليضله عن سبيل النجاة حتى يحشر مع العصاة، بل الواجب مقابلة ذلك بصريح الإيمان، بسبق القضاء والعلم بكل حركة وسكون، وأن الرزق مقسوم، كما أن الأجل محتوم، كما قال ﷺ لابن عباس «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ

يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[1]، فإذا استحضر الداعية والمحتسب ذلك يكون واثقًا بربه، غير مبال بما يحصل له في ذات الله، صابرًا محتسبًا أجره عند الله"[2].

ثانياً: الحرص على المقاصد التي يحبها الله عند الأمر والنهي، وما يحمله علي القيام به.

قال ابن رجب رحمه الله: "واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر **تارة** يحمل عليه رجاء ثوابه، **وتارة** خوف العقاب في تركه، **وتارة** الغضب لله على انتهاك محارمه، **وتارة** النصيحة للمؤمنين، والرحمة لهم، ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة، **وتارة** يحمل عليه إجلال الله وإعظامه ومحبته، وأنه أهل أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وأن يفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال، كما قال بعض السلف:" وددت أن الخلق كلهم أطاعوا الله، وإن لحمي قرض بالمقاريض"[3].. ومن لحظ هذا المقام، هان عليه كل ما يلقى من الأذى في الله تعالى، وربما دعا لمن آذاه، كما قال ذلك النبي ﷺ لما ضربه قومه فجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»"[4] [5].

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٦٧) ح(٢٥١٦) قال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٤٥٩) ح(٥٣٠٢).

(٢) القول البين الأظهر في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص١١٢ -١١٥ بترقيم الشاملة آليا).

(٣) نقله أبو نعيم عن زهير البابي -رحمة الله على الجميع- في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة (١٠/ ١٥٠).

(٤) يشير بهذا إلى حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ".
أخرجه البخاري (٤/ ١٧٥)ح(٣٤٧٧)، ومسلم (٥/ ١٧٩)ح(١٧٩٢).

(٥) جامع العلوم والحكم (ص٧٠٩ ت الفحل) مع تصرف يسير.

ثالثاً: شعوره بالحياء من الله أن يأمر الناس وينهاهم وينسى نفسه، فيجعله ذلك يسارع إلى امتثال الأمر واجتناب النهي.

لأن ذلك يسبب مقت الله له كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

وقال تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

رابعاً: الخوف من عقوبة الله التي تترتب على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيسارع إلى أن يكون من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وقد سبق الإشارة إلى ذلك.

خامساً: امتثال الأمر بالمعروف عند الأمر به، واجتناب المنكر خوفاً من عقوبة الله المترتبة على عدم امتثاله للأمر الذي يأمر به ووقوعه في المنكر الذي نهى عنه، كما في قوله ﷺ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلاَنُ، مَا شَأْنُكَ؟! أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟! قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ»[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "أَتَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى رِجَالٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ خطَبَاءُ أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلا يَعْقِلُونَ؟ "[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٢١) ح (٣٢٦٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٠) ح (٢٩٨٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٩/ ٢٤٤ ط الرسالة)ح(١٢٢١١)، وأبو يعلى في مسنده - ت السناري (٥/ ٦٠٢)ح(٣٩٩٢)، وذكر في مجمع الزوائد(٧/ ٢٧٦) أن أحد رجال أبي يعلى رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب

سادساً: صبره على ما يصيبه من أذى حين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من أجل الله وثقته في ثواب الله، قال تعالى كما في وصية لقمان لابنه: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وفي وصية عمير بن حبيب لبنيه".. وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر فليوطن نفسه على الصبر على الأذى، فإنه من يصبر لا يجد للأذى مساً"[(١)].

وكما سبق في قول ابن رجب رحمه الله عند ذكره البواعث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: "..وتارة يحمل عليه إجلال الله وإعظامه ومحبته وأنه أهل أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وأن يفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال، كما قال بعض السلف: "وددت أن الخلق كلهم أطاعوا الله وأن لحمي قرض بالمقاريض"[(٢)].. فمن لحظ هذا المقام، هان عليه ما يلقى من الآلام، وربما دعا لمن آذاه، لكون ذلك في الله، كما دعا النبي ﷺ لما ضربه قومه، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول:" رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"[(٣)(٤)].

(٢/ ٥٨٤)ح(٢٣٢٧)، وصححه محقق مسند أحمد (١٩/ ٢٤٤ ط الرسالة)ح(١٢٢١١)، وصححه محقق مسند أبي يعلى - ت السناري (٥/ ٦٠٢) ح(٣٩٩٢).

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٤ ت الحوت).

(٢) نقله أبو نعيم عن زهير البابي -رحمة الله على الجميع- في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة (١٠/ ١٥٠).

(٣) يشير بهذا إلى حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ".

أخرجه البخاري (٤/ ١٧٥)ح(٣٤٧٧)، ومسلم (٥/ ١٧٩)ح(١٧٩٢).

(٤) جامع العلوم والحكم (ص٧٠٩ ت الفحل) مع تصرف يسير.

سابعاً: تفقد مقاصده عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هل يفعل ذلك لله أو لحظوظ نفسه أو حمية لغير الله، ثم عليه يجاهد نفسه على إصلاحها ويتفقد مواطن الخلل.

لأن العمل لا يقبل عند الله ولا يؤجر عليه صاحبه إلا إذا كان خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله والصواب ما كان موافقاً للسنة، ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم العبادات، قال الفضيل بن عياض رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك: ٢]: "هو أخلصه وأصوبه"، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: "إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة"، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠][(١)].

وهذه مقتطفات من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذا الأمر يقول: «واذا كانت جميع الحسنات لا بد فيها من شيئين: أن يراد بها وجه الله، وأن تكون موافقة للشريعة، فهذا في الأقوال والأفعال في الكلم الطيب والعمل الصالح، في الأمور العلمية والأمور العملية العبادية»[(٢)].

وقال أيضاً رحمه الله: " ففي هذه الأمور العلمية الكلامية يحتاج المخبر بها أن يكون ما يخبر به عن الله واليوم الآخر، وما كان وما يكون حقاً وصواباً، وما يأمر به وما ينهي عنه، كما جاءت به الرسل عن الله فهذا هو الصواب الموافق للسنة والشريعة المتبع لكتاب الله وسنة رسوله، كما أن العبادات التي يتعبد العباد بها إذا كانت مما شرعة الله وأمر الله به ورسوله كانت حقاً صواباً موافقا لما بعث الله به رسله، وما لم يكن كذلك من القسمين كان من الباطل والبدع المضلة والجهل؛ وإن كان يسميه من يسميه علوماً ومعقولات وعبادات

---

(١) ينظر: حلية الأولياء (٨/ ٩٥)، مدارج السالكين (٢/ ٨٨-٨٩) مع بعض التصرف.

(٢) الاستقامة (٢/ ٢٩٧).

ومجاهدات وأذواقاً ومقامات، ويحتاج أيضاً أن يؤمر بذلك لأمر الله به، وينهى عنه لنهي الله عنه، ويخبر بما أخبر الله به؛ لأنه حق وإيمان وهدى كما أخبرت به الرسل، كما تحتاج العبادة إلى أن يقصد بها وجه الله، فإذا قيل ذلك لاتباع الهوى والحمية أو لإظهار العلم والفضيلة أو لطلب السمعة والرياء كان بمنزلة المقاتل شجاعة وحمية ورياء"[1].

(١) الاستقامة (٢/ ٢٩٩-٣٠٠).

ثامناً: عدم إنكار المنكر يؤدي إلى تشرب القلب للمنكر شيئاً فشيئاً، ومن ثم إلى فساده وانتكاسه، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما وافق هواه، وهذه من أعظم فتن القلب.

قَالَ حُذَيْفَةُ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله معلقاً على حديث حذيفة ﷺ: "فشبَّه عرض الفتن على القلوب شيئًا فشيئًا كعرض عيدانِ الحصير -وهي طاقاتها[(٢)]- شيئًا فشيئًا، وقسَّم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين:

قلب إذا عُرضت عليه فتنة أُشْرِبها، كما يشرب السِّفِنْج الماء، فتُنكَت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يُشرب كل فتنة تعرض عليه، حتى يسودّ وينتكس، وهو معنى قوله: «كالكوز[(٣)] مُجَخِّيًا» أي: مكبوبًا منكوسًا، فإذا اسودَّ وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران مترامیان[(٤)] إلى الهلاك:

---

(١) أخرجه مسلم(١/ ١٢٨) ح (١٤٤).

(٢) جمع طاقة ويقصد بها هنا الحزمة من أعواد الحصير، كما في المعجم الاشتقاقي المؤصل للدكتور مُحَمَّد حسن جبل (٣/ ١٣٤٠). والطاقة: حُزْمة من رَيحان أو زَهر أو شَعر أو عِيدان أو حِبال.

(٣) وهو إناء يشرب فيه مثل الكُوب، ولكن له عروة يمسك بها.

ينظر في معنى الكوز: تهذيب اللغة (١٠/ ١٧٥)، المخصص (٣/ ١٩٩)، لسان العرب (٥/ ٤٠٣).

(٤) بمعنى: يصيران ويفضيان به إلى الهلاك. ينظر: لسان العرب (١٤/ ٣٣٦) مادة (رمى).

أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، وربما استحكم فيه هذا المرض، حتى يعتقد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلًا والباطل حقًّا.

الثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ، وانقياده للهوى واتباعه له.

وقلب أبيض، قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وكرهَها، فازداد نوره وإشراقه وقوَّته.

والفتن التي تُعرَض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات، وفتن الغي والضلال، وفتن المعاصي والبدع، وفتن الظلم والجهل؛ فالأولى توجب فساد القصد والإرادة، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد"[1].

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٥-١٦).

المطلب الرابع: التقرب إلى الله بأكل الحلال الطيب وأثره على زكاة القلب، وفيه مسألتان.

المسألة الأولى : الأدلة على ذلك.

قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾، وقال تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١].

وقال تعالى للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١-٣٢].

وقال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وقد ورد في السنة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾. وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ

السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ »[1].

المسألة الثانية: أثر أكل الطيبات على زكاة القلب.

١- يجلب الرقة واللين للقلب والإخلاص ومن ثم قبول العمل من دعاء وغيره.

«وسئل الإمام أحمد ما يلين القلب؟ فقال أكل الحلال، فسأل السائل بشر بن الحارث وعبد الوهاب الوراق رحمهما الله فقالا يذكر الله، فذكر لهما أحمد فقالا جاء بالأصل»[2].

وفي المقابل أكل الحرام يؤدي إلى فساد القلب وحرمانه من الخير الكثير؛ «لأن أكل الحرام يفسد القلوب، فتحرم الرقة والإخلاص، فلا تقبل الأعمال»[3].

٢- يورث القلب صفاء ونقاء ونوراً في البصيرة.

قال أبو شجاع الكرماني: «من عَمَرَ ظاهره باتباع السنة، وباطنَه بدوام المراقبة، وكفَّ نفسه عن الشهوات، وغضَّ بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال، لم تُخطئ له فراسة»[4].

"أكل الحلال يورث صفاء القلب ورقته ونور بصيرته، فإذا حرص الداعية على تحري أكل الحلال، وابتعد عن المشتبهات، صلح قلبه، ورزق البصيرة في دعوته، فإن من أعظم العوائق التي تبعد الداعية عن التوفيق وتطفئ نور بصيرته وقوعه في أكل الحرام.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾. وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ٨٥)ح(١٠١٥).

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٢٧٧).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/ ٥٩).

(٤) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (١/ ٧٦ ط عطاءات العلم).

يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ »[1].

وإذا لم يستجب الله لدعائه وحيل بينه وبين الإجابة بسبب أكل الحرام، وذلك عقوبة له، ويترتب على هذه العقوبة، ظلمة القلب، وذهاب نور بصيرته، وحرمانه من التوفيق"[2].

(١) أخرجه مسلم (٣/ ٨٥)ح(١٠١٥).

(٢) أثر أعمال القلوب على الداعية والدعوة (ص٤٩١ بترقيم الشاملة آليا).

المطلب الخامس: التقرب إلى الله بالنوافل، وفيه مسائل.

ومن الأعمال التي لها أثر كبير على زكاة القلب التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[1] الحديث.

وإذا تقرب المسلم إلى الله بالنوافل بعد الفرائض أصلح الله له قلبه، ومن ثم صلحت جوارحه وانقادت لأمر الله، ودونك طرفًا من هذه النوافل:

المسألة الأولى: طلب العلم النافع.

العلم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ هو العلم الشرعي النافع الذي يحيي الله به القلوب كما تحيا الأرض بوابل القطر، وفي المقابل الجهل بذلك تموت به القلوب، فإذا هي دار خراب، قد عششت فيها الشياطين، وتمكنت منها الفتن.

وقال ابن حجر رحمه الله في معنى العلم: "والمراد بالعلم العلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه"[2].

وذكر ابن القيم رحمه الله جهات تفضيل العلم على غيره، وأن الحاجة إليه أعظم من الحاجة إلى الطعام، بل فوق الحاجة إلى النَفَس، فقال: "إن فضيلة الشيء وشرفه يظهر تارة من عموم منفعته، وتارة من شدة الحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه، وتارة من ظهور النقص

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ١٠٥)ح(٦٥٠٢).

(٢) فتح الباري (١/ ١٤١).

والشر بفقده، وتارة من حصول اللذة والسرور والبهجة بوجوده لكونه محبوبًا ملائمًا، فإدراكه يعقب غاية اللذة، وتارة من كمال الثمرة المترتبة عليه وشرف علته الغائية وإفضائه إلى أجل المطالب، وهذه الوجوه ونحوها تنشأ وتظهر من متعلقه، فإذا كان في نفسه كمالًا وشرفًا بقطع النظر عن متعلقاته جمع جهات الشرف والفضل في نفسه ومتعلقاته، ومعلوم أن هذه الجهات بأسرها حاصلة للعلم، فإنه أعم شيء نفعًا، وأكثره وأدومه، والحاجة إليه فوق الحاجة إلى الغذاء، بل فوق الحاجة إلى التنفس؛ إذ غاية ما يتصور من فقدهما فقد حياة الجسم، وأما فقد العلم ففيه فقد حياة القلب والروح، فلا غنى للعبد عنه طرفة عين، ولهذا إذا فُقِدَ من الشخص كان شرًّا من الحمير، بل كان شرًّا من الدواب عند الله، ولا شيء أنقص منه حينئذ.

وأما حصول اللذة والبهجة بوجوده؛ فلأنه كمال في نفسه وهو ملائم غاية الملاءمة للنفوس؛ فإن الجهل مرض ونقص، وهو في غاية الإيذاء والإيلام للنفس، ومن لم يشعر بهذه الملاءمة والمنافرة فهو لفقد حسه وموت نفسه"(١).

وذكر رحمه الله في المقابل أثر الجهل على قلب العبد وروحه، فقال: "فإن الجاهل ميت القلب والروح وإن كان حي البدن، فجسده قبر يمشي به على وجه الأرض، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[يس: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٨٥).

وشبههم في موت قلوبهم بأهل القبور، فإنهم قد ماتت أرواحهم، وصارت أجسامهم قبورًا لها، فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور، كذلك لا يسمع هؤلاء، وإذا كانت الحياة هي الحس والحركة وملزومهما، فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان، ولم تتحرك له: كانت ميتة حقيقة، وليس هذا تشبيهًا لموتها بموت البدن، بل ذلك موت القلب والروح.

وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب الزهد من كلام لقمان، أنه قال لابنه: (يا بني، جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض بوابل القطر)[1][2].

المسألة الثانية: قيام الليل.

ومن العبادات التي لها أثر كبير على زكاة القلب القيام بين يدي الله في الليل:

قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

وقال تعالى عنهم: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذاريات: ١٧، ١٨].

وقيام الليل من الأعمال العظيمة التي لها أثر كبير في صلاح القلب وزكاته؛ وقد فرضه الله على رسوله وعلى الأمة في أول الأمر، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٨٩) رقم (٥٥٢).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٢٤٥-٢٤٦).

إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾ [المزمل: ١-٦]، ثم نسخت فرضيته عن الأمة بآخر سورة المزمل، وبقي مستحبًّا في حقِّها، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ الآية [المزمل: ٢٠][(١)].

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ»[(٢)].

المسألة الثالثة: تلاوة القرآن بخشوع وتدبر[(٣)].

وتلاوة القرآن وتدبره، والخشوع عند تلاوته وهو ثمرة من ثمرات تدبره، والقلوب ترق وتخشع، ويزداد خشوعها حين تقبل على تلاوة القرآن متدبرة لآياته متأثرة بمعانيه، قال تعالى في وصف عباده الصالحين مع القرآن وقد خشعت قلوبهم ودمعت عينهم من خشية الله والشعور بعظمة كلامة وشدة تأثيره، قال سبحانه في وصفهم: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ۝١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٢٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٥٣) ح (٣٥٤٩) من طريقين الأولى من حديث أبي إدريس عن بلال وقال: "ولا يصح من قبل إسناده"، وقال عن الطريق الثانية التي من حديث أبي إدريس عن أبي أمامة: "وهذا أصح من حديث أبي إدريس عن بلال"، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١/ ٥٦٣) ح (١١٣٥)، والحاكم (١/ ٤٥١) ح (١١٥٦) وصححه وأقره الذهبي، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٣٨٧) ح (١٢٢٧).

(٣) من أراد التوسع في هذا الموضوع وعلاقته بالقلب فلينظر كتابي(أثر عمل القلب على تلاوة القرآن وتدبره) على الشبكة.

قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٩].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال تعالى في وصفهم: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وقال تعالى وهو يضرب مثلاً بأشد المخلوقات صلابة لعل القلوب تتفكر فتتأثر ثم تقارن حالها بهذا المخلوق الجماد الذي لو نزل عليه القرآن كلام الرحمن الذي خلقه وهو يقدر هذا الكلام حق قدره انظر ماذا سيحدث له، فقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

ثم نقارن حالنا بحال الجبل وقد أنزل الينا القرآن، فكيف حالنا مع كتابه العظيم؟! إلى الله المشتكى!!

ولذا جاءت أكثر من آية تحث على تدبر القرآن الكريم ليجد المؤمن أثره عليه، فقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وتدبر القرآن الكريم الذي هو الحكمة من نزوله يعنى: التفكر في آياته، وفهمها والتأمل في معانيها[1] بتكرار ذلك، وإقامة حروفه وحدوده بالعمل به[2]، واستحضار عظمة قائله، وتدبره هو الذي يثمر في القلب ثمرته، فينزل في القلب أثره، فينفع صاحبه، كما يقول ابن مسعود ﷺ[3].

فإذا تدبرنا القرآن نزل في القلوب فنفع، ونجا صاحبه من الفتن والمهالك، فليست العبرة بكثرة القراءة التي لا فقه معها، فإن الرسول ﷺ حذر أمته من أقوام يكثرون القراءة؛ ولكن القرآن لا ينزل إلى قلوبهم، فما انتفعوا به، بل سقطوا في الفتن، وكانوا لها حطبًا، وهم الذين عناهم بقوله ﷺ لعمر ﷺ: «دَعْهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[4].

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي اخْتِلَافٌ وَفُرْقَةٌ، قَوْمٌ يُحْسِنُونَ الْقِيلَ وَيُسِيئُونَ الْفِعْلَ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يَرْجِعُونَ حَتَّى يَرْتَدَّ عَلَى فُوقِهِ، هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ، طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ وَقَتَلُوهُ، يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَلَيْسُوا مِنْهُ فِي شَيْءٍ، مَنْ قَاتَلَهُمْ كَانَ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْهُمْ» الحديث[5].

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٧/ ٨٨)، تفسير ابن كثير (١/ ٦)، تفسير السعدي (٧١٢).

(٢) ونقل ابن كثير في تفسيره (٧/ ٦٤) عن ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قوله: "والله، ما تَدَبَّره بحفظ حروفِهِ وإضاعةِ حدودِهِ، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله ما يُرى له القرآن في خُلُق ولا عمل".

(٣) سيأتي قريباً.

(٤) أخرجه البخاري (٤/ ٢٠٠) ح (٣٦١٠)، ومسلم (٢/ ٧٤٤) ح (١٠٦٤).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٢١/ ٥١) ح (١٣٣٣٨)، وأبو داود (٤/ ٢٤٣) ح (٤٧٦٥)، والحاكم (٢/ ١٦٠) ح (٢٦٤٨) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع(١/ ٦٨٤) ح (٣٦٦٨).

ومن حديث علي ﷺ يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(١)].

إذن ليست العبرة بكثرة تلاوة القرآن بدون فهم وعمل به، بل العبرة والمطلوب هو العمل والتدبر الذي يجعل الآيات تنزل إلى القلب، فينتفع بها، كما قال ابن مسعود ﷺ لذلك الرجل الذي يقرأ المفصل في ركعة في بيان الخطأ الذي وقع فيه: "هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ[(٢)]! إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ"[(٣)].

وهذه بعض الوسائل المعينة على التدبر والخشوع عند تلاوة القرآن العظيم، والتي لها أثر في زكاة القلب وصلاحه:

١- الدعاء مع الالحاح على الله بأن يرزق العبد التدبر والخشوع عند تلاوة كتابه.

٢- حضور القلب عند الاستعاذة.

٣- شعور القلب بعظمة كلام الله الذي لو نزل على الجبال لخشعت وتصدعت من خشية الله وتعظيم كلام الله.

٤- كثرة الاستغفار والتوبة.

٥- تكرار الآيات حتى تحدث أثرها في القلب بالخشوع والبكاء من خشية الله، وذلك يكون بالآتي:

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٦) ح (٦٩٣٠)، ومسلم واللفظ له (٢/ ٧٤٦) ح (١٠٦٦).

(٢) والمراد بالهذ هنا: سرعة قراءة القرآن كما يسرع في قراءة الشعر، والهذُّ: السرعة.

ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٥٥) مادة (هذذ).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٥٦٣) ح (٨٢٢).

أ- أن تحرك قلبك بمعنى الآيات أو الآية التي تكررها، وكأنك تعايش ما تتحدث عنه الآيات فإن كان نعيم عشت مع أجواء النعيم وحركت قلبك بذلك، وإن كانت الآيات تتحدث عن العذاب أو العقاب لمن عصى الله فتحضر قلبك وتتخيل كيف لو كان مكانك في هذا العذاب تتجرع مرارته فتحرك قلبك بذلك ليخشعك ويخضع لعل العين تدمع من هذه المواقف وتستعيذ بالله من عذابه وعقوبته، وان كانت الآيات تتحدث عن عظيم قدرة الله حركت قلبك بالشعور بعظمته وقدرته وقوته وقدرته حق قدره وتدبرت في آثار ودلائل عظيم مخلوقاته التي تدل على عظمته وجلاله وعظيم قدرته وقوته..

ب- لا تستعجل في تلاوة الآيات بل اجعل أعظم همك التأثر والتدبر وأن تحيي موات قلبك بمطر مواعظ آياته، كما قال تعالى عن أثر مواعظه:﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى عنه:﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

وقال تعالى:﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]،وعلى رأس الذكرى القرآن العظيم، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ [الأعلى: ٩-١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [يس: ١١].

وقال تعالى عن أثر القرآن على المؤمنين: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الزمر: ٢٣].

المسألة الرابعة: الإحسان إلى الناس بالإنفاق والخلق الحسن.

ومن الأعمال التي لها أثر في صلاح القلب: الإحسان إلى عباد الله ببذل ما تجود به النفس من المال والتعامل معهم بالخلق الحسن، وقد سبق الكلام عن هذا.

المسألة الخامسة: الإكثار من ذكر الله[1].

من العبادات التي لها أثر في حياة القلب وطمأنينته الإكثار من ذكر الله تعالى.

قال ﷻ في وصف عباده: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[آل عمران: ١٩١].

وحث الله عباده على الإكثار من ذكره، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١].

وأخبر ﷻ أنه يذكر من يذكره، ويكون معه في حال ذكره لربه، فقال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» الحديث[2].

ومن الأسباب التي تجعل الذكر سببًا لصلاح القلب وزكاته.

١- الإخلاص لله في هذه العبادة.

٢- الحرص على حضور القلب عند قول الذكر.

٣- المواظبة والاستمرار.

٤- سؤال الله أن يعينه على هذه العبادة.

---

(١) من أراد التوسع في هذا الموضوع وعلاقته بالقلب فلينظر كتابي(أثر عمل القلب على عبادة الذكر والدعاء) على الشبكة.

(٢) أخرجه البخاري (٩/ ١٢١) ح (٧٤٠٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٦١) ح (٢٦٧٥).

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، أَنَّ رَسُولَ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»، فَقَالَ: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[1].

٥- الحرص على المتابعة في هذه العبادة وذلك يتمثل فيما يلي:

- الحرص على الالتزام بوقت الذكر المحدد وعدده.
- الحرص على الالتزام بلفظ الذكر الذي ورد به الدليل.
- الحرص على الالتزام بطريقة أداء العبادة المشروعة كما صح بها الدليل.

يقول ابن القيم رحمه الله عن فائدة الذكر: "إنه قوت القلب والروح، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته.

وحضرت شيخ الاسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي، أو كلامًا قريبًا من هذا"[2].

المسألة السادسة: كثرة الاستغفار والتوبة.

لا شك أن للذنوب والمعاصي أثرًا كبيرًا في إفساد القلب، وضررها عظيم عليه، "وأن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر. وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي؟!"[3].

وهذا الداء الخطير على القلوب قد جعل الله له علاجًا، وهو الاستغفار والتوبة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٦/ ٤٢٩) ح (٢٢١١٩)، وأبو داود (٢/ ٨٦) ح (١٥٢٢)، والنسائي (٣/ ٥٣) ح (١٣٠٣)، وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٣٩١) ح (٧٥١)، وابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٦٤) ح (٢٠٢٠)، والحاكم (١/ ٤٠٧) ح (١٠١٠) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٥٩) ح (١٥٩٦)، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيقه على المسند (٣٦/ ٤٣٠) ح (٢٢١١٩).

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب (٤٢).

(٣) الجواب الكافي (١/ ٩٨).

قال تعالى في بيان أثر الاستغفار: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وقال ﷻ في بيان ثمرات الاستغفار والتوبة: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾[هود: ٥٢].

والذي يظهر من أقوال المفسرين في زيادة القوة أنها قوة حسية ومعنوية، يجدون أثرها في حياتهم(١).

ولا شك أن المسلم بحاجة ماسة لهذه القوة التي يعينه الله بها على النجاح في شأنه كله.

وجاء الأمر بالتوبة فقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وينظر المسلم إلى حال القدوة ﷺ، وهو الذي قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع هذا يبذل جهدًا عظيمًا في كثرة الاستغفار والتوبة، وذلك ما يجعله يسابق وينافس في هذا المضمار لينال ثمرة ذلك في زكاة قلبه وصلاحه.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٢/ ٤٤٥)، تفسير البغوي (٤/ ١٨٣)، تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٩)، فتح القدير للشوكاني (٢/ ٥٧٣)، تفسير السعدي (٣٨٣).

يقول أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «وَاللَّهِ، إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»(١).

ويَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللهِ، وَاسْتَغْفِرُوهُ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللهِ، وَأَسْتَغْفِرُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ»(٢).

ومن رحمة الله بعباده أن فتح لهم باب التوبة، فعَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(٣).

بل الأمر أعظم من ذلك، فالله يفرح بتوبة عبده فرحًا عظيمًا قرّبه النبي ﷺ بمثال؛ ليظهر منه عظيم فرحة الرب ﷻ بتوبة عبده.

يَقُولُ ﷺ: «للَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٦٧) ح (٦٣٠٧).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٠/ ٢٢٦) ح (١٨٢٩٤)، والسنن الكبرى للنسائي (٩/ ١٦٨) ح (١٠٢٠٥)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٤٣٥) ح (١٤٥٢)، وقال محقق المسند شعيب الأرناؤوط (٣٠/ ٢٢٦) ح (١٨٢٩٤): "حديث صحيح".

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢١١٣) ح (٢٧٥٩).

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٠٣) ح (٢٧٤٤).

وحتى يحصل من التوبة والاستغفار أثرهما على صلاح القلب فا بد من مراعاة أمور، وهي:

١- الندم على ما حصل من الذنب.

٢- العزم على عدم العودة للذنب.

٣- الإقلاع عن الذنب.

٤- وإذا كان الذنب في حقوق الآدميين، فلا بد من إرجاعها لهم أو طلب السماح[١].

٥- حضور القلب عند التوبة والاستغفار، فتكون التوبة والاستغفار باللسان والقلب، فيحدث أثر التوبة في القلب، وهذا الأثر يحدث -والله أعلم- مع كثرة الاستغفار والتوبة؛ لأنه مع التكرار يحضر القلب ويحدث الأثر فيه، ولذا جاءت النصوص بالإكثار من التوبة والاستغفار، كما سبق في الأحاديث من فعل النبي ﷺ وحثه لأمته.

٦- البحث عن جلساء صالحين يعينونه على الخير، والاستمرار على التوبة، كما في حديث قاتل المائة، فقد حثه العالم على الذهاب إلى قرية الصالحين حتى يجد من يعينونه على توبته[٢].

---

(١) ينظر: رياض الصالحين (٣٣-٣٤).

(٢) وقد دل على هذا حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ».

أخرجه مسلم (٤/ ٢١١٨) ح (٢٧٦٦).

المسألة السابعة: المحاسبة، والمجاهدة للنفس على ما سبق من الفرائض والنوافل.

من الأعمال التي لها أثر في صلاح القلب وزكاته وثبات صاحبه إقباله على محاسبة نفسه، ومجاهدتها على الطاعات، ودونك طرفًا من خبر ذلك:

قال تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

قال ابن كثير رحمه الله: "أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم"(١).

ويقول السعدي رحمه الله: "وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللًا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرًا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة"(٢).

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال قتادة رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿فُرُطًا﴾: "أضاع أكبر الضيعة، أضاع نفسه، [وغبن](٣) مع ذلك.. تجده حافظًا لماله، مضيعًا لدينه"(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٧).

(٢) تفسير السعدي (٨٥٣).

(٣) في الأصل: (وعسى)، وفي إغاثة اللهفان (١/ ١٣٢): (وغبن)، وهو الصحيح الذي يستقيم به المعنى، والله أعلم.

(٤) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (٢٥) مع بعض التصرف اليسير.

وعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحُاسِبوا أنفسَكم اليومَ، وَتَزَيّنوا للعرض الأكبر؛ يومئذٍ تُعرَضون لا تخفى منكم خافية"(١).

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال البغوي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: " ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ الذين جاهدوا المشركين لنصرة ديننا، ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ لنثبتنهم على ما قاتلوا عليه، وقيل: لنزيدنهم هدى كما قال: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾ [مريم: ٧٦]، وقيل: لنوفقنهم لإصابة الطريق المستقيمة، والطريق المستقيمة هي التي يوصل بها إلى رضا الله ﷻ. قال سفيان بن عيينة: إذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغور، فإن الله قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾، وقيل: المجاهدة هي الصبر على الطاعات. قال الحسن: أفضل الجهاد مخالفة الهوى، وقال الفضيل بن عياض: والذين جاهدوا في طلب

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (٩٩).

ونقل ابن أبي الدنيا عن الحسن البصري رحمه الله في محاسبة النفس (٢٥) قوله: "إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همته".

وفي كتاب محاسبة النفس (٦٠) أيضًا عن الحسن قال: "المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله ﷻ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفجؤه الشيء ويعجبه، فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما صلة إليك هيهات، حيل بيني وبينك. ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: هيهات.. وما لي ولهذا؟! والله ما أعذر بهذا، والله لا أعود إلى هذا أبدًا إن شاء الله. إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم. إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله".

العلم لنهدينهم سبل العمل به، وقال سهل بن عبد الله: والذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة.

وروي عن ابن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا"[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

ومن جاهد عدوه الكافر، ونفسه بالصبر على الطاعات، وجاهد هواه وشيطانه، فإنما تعود ثمرة تلك المجاهدة عليه[2].

(١) تفسير البغوي (٦/ ٢٥٦).

(٢) ينظر: تفسير البغوي (٦/ ٢٣٣)، تفسير ابن كثير (٦/ ٢٦٤)، تفسير السعدي (٦٢٦).

المبحث الخامس: من مظاهر زكاة القلب، وفيه مطلبان.

المطلب الأول: ودونك طرفاً من المظاهر التي تدل على زكاة القلب وسلامته على سبيل الإجمال.

أولاً: من أبرز مظاهر زكاة القلب الإيمان بالله واليوم الآخر وكثرة الأعمال الصالحة.

ثانياً: تقدير الله حق قدره، والعناية العظيمة بسلامة العقيدة من شوائب الشرك.

ثالثاً: سلامته من الأمراض القلبية.

رابعاً: المسابقة والمسارعة إلى طاعة الله ورضوانه والجنة.

خامساً: تعلق القلب بالآخرة.

سادساً: كثرة تلاوة القرآن العظيم والخشوع عند تلاوته بالتدبر.

سابعاً: الحرص على الخشوع في الصلاة.

ثامناً: كثرة ذكر الله على كل الأحوال.

تاسعاً: كثرة التوبة والاستغفار.

عاشراً: كثرة الدعاء.

الحادي عشر: التخلق بالأخلاق الحسنة.

الثاني عشر: حرصه على قيام الليل.

الثالث عشر: الحرص على مجالسة الصالحين.

الرابع عشر: الثبات على المبادئ والاستقامة.

الخامس عشر: كثرة الصدقة.

السادس عشر: سلامة اللسان من الآفات.

السابع عشر: غض البصر عن النظر الحرام.

الثامن عشر: مراقبة الله في السر والعلن.

المطلب الثاني: التفصيل بشيء من الإيجاز في بعض هذه المظاهر في المسائل الآتية. وسيكون الحديث بإذن الله تعالى في ست مسائل مرتبطة بالتزكية.

المسألة الأولى: من أبرز مظاهر زكاة القلب الإيمان بالله واليوم الآخر وكثرة الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٥-٧٦].

وكثيراً ما يقرن الله في كتابه بين الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

ولا شك أن الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر وكثرة الأعمال الصالحة من أعظم أسباب زكاة القلب وصلاحه، وهي كذلك من العلامات الدالة على زكاة القلب، فإذا زكى القلب بالإيمان ظهر أثر ذلك على الجوارح مسارعة ومسابقة إلى الأعمال الصالحة مع حرصه

العظيم على الإخلاص لله تعالى فيها، وحرصه العظيم كذلك على موافقة سنة النبي صلى الله عليه وسلم واتباع هديه في كل ما يقوم به من الأعمال الصالحة.

المسألة الثانية: ومن أبرز مظاهر زكاة القلب تقدير الله حق قدره وتطهيره من الشرك وشوائبه الباطنة والظاهرة، وحضور الآخرة في قلبه، وعدم غفلته عنها، كما قال تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦-٧].

ومال ابن عطية في تفسير الزكاة في هذه الآية إلى قول ابن عباس وجمهور المفسرين، إلى أنها زكاة القلب والبدن بالتوحيد وتطهيره من الشرك والمعاصي، حيث قال رحمه الله: «وقال ابن عباس والجمهور: الزَّكاة في هذه الآية: "لا إله إلا الله التوحيد"، كما قال موسى لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨]، ويرجح هذا التأويل أن الآية من أول المكي، وزكاة المال إنما نزلت بالمدينة، وإنما هذه زكاة القلب والبدن، أي تطهيره من الشرك والمعاصي، وقاله مجاهد والربيع»[(١)].

ويقول ابن تيمية رحمه الله في معنى الزكاة في الآية: « ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات إلهية الحق في القلب وهو حقيقة لا إله إلا الله. وهذا أصل ما تزكو به القلوب»[(٢)].

ومال ابن كثير رحمه الله إلى احتمال الأمرين زكاة الانفس وزكاة المال، فقال: «وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم»[(٣)].

---

(١) تفسير ابن عطية(٥/ ٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٧).

(٣) تفسير ابن كثير – ت السلامة (٥/ ٤٦٢).

وقال ابن القيم رحمه الله في معنى الزكاة في الآية: «قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد، شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب؛ فإنه يتضمن نفى إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارة، وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء؛ فإن التزكي وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة، فإنما يحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا، فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد»[1].

وبناء على ما سبق فإن من أعظم مظاهر زكاة القلب توحيده، وصفاء عقيدته، وطهارة قلبه من شوائب الشرك جليه وخفيه، فإذا سلم توحيد العبد من شوائب الشرك وفقه الله إلى أن يقدر الله حق قدره، وقد قال تعالى عن الذين تلطخوا بالشرك وقذارته: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، فمن العلامات العظيمة على زكاة القلب تقدير الله حق قدره في كل الأمور في عقيدته وعبادته وسائر تعاملاته[2].

---

(١) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (١/ ٧٩ ط عطاءات العلم).

(٢) من أراد أن يتوسع في هذا الموضوع فليراجع كتابي:(وما قدروا الله حق قدره على الشبكة) على الشبكة.

المسألة الثالثة: مراقبة الله في السر والعلن وخشيته في الغيب والشهادة من أبرز مظاهر زكاة القلب، وقد نص عليه الدليل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

وقد سبق قوله ﷺ: **"...وَزَكَّى نَفْسَهُ "، فَقَالَ رَجُلٌ: وَمَا تَزْكِيَةُ النَّفْسِ؟ فَقَالَ: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عز وجل مَعَهُ حَيْثُ كَانَ"**.

وهذا المعنى هو مرتبة من مراتب الإحسان كما في الحديث: «الْإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[(١)].

وفي لفظ عند مسلم قال ﷺ عن الإحسان: « أَنْ تَخْشَى اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[(٢)].

وقوله ﷺ:«أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عز وجل مَعَهُ حَيْثُ كَانَ" أي يستشعر في قلبه معاني هذه الآيات التي تفسر هذا الحديث، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

---

(١)أخرجه البخاري (٤/ ١٧٩٣)ح(٤٤٩٩)، ومسلم (١/ ٢٨)ح(٨).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٣١)ح(١٠).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣].

وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وهذه المعاني التي تغرسها هذه الآيات في القلوب هي أعظم سبب لزكاة القلب، وذلك حين يستشعر المؤمن بقلبه اطلاع الله عليه وعلمه المحيط به وسمعه له وبصره به ﷻ.

وأيضا هذه المعاني من أبرز مظاهر زكاة القلب، وعلامة ذلك أن يحرص العبد أشد الحرص على تطهير قلبه وتنقيته من أسباب فساده من الذنوب والخطايا، ويكون ذلك بالتوبة وكثرة الاستغفار، وكثرة الأعمال الصالحة من صدقات وغيرها.

المسألة الرابعة: من أعظم مظاهر زكاة القلب الإكثار من ذكر الله تعالى، والمحافظة على إقامة الصلوات الخمس، وكثرة نوافل الصلاة، قال تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

قال السعدي رحمه الله: «أي: قد فاز وربح من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق، {وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} أي: اتصف بذكر الله، وانصبغ به قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصًا الصلاة، التي هي ميزان الإيمان، فهذا معنى الآية الكريمة، وأما من فسر قوله {تزكى} بمعني أخرج زكاة الفطر، وذكر اسم ربه فصلى، أنه صلاة العيد، فإنه وإن كان داخلاً في اللفظ وبعض جزئياته، فليس هو المعنى وحده»[1].

وقال مُحَمَّد سيد طنطاوي رحمه الله في تفسيره: «أى: قد أفلح وفاز وانتفع بالتذكير، من حاول تزكية نفسه وتطهيرها من كل سوء.

ومن ذكر اسم ربه بقلبه ولسانه، فصلى الصلوات الخمس التي فرضها الله- تعالى- عليه. وأضاف إليها ما استطاع من نوافل وسنن.

وعبر- سبحانه- بقوله: قَدْ أَفْلَحَ ليجمع في هذا التعبير البليغ، كل معاني الخير والنفع، لأن الفلاح معناه: وصول المرء إلى ما يطمح إليه من فوز ونفع. وجاء التعبير بالماضي المسبوق بقد، للدلالة على تحقيق هذا الفلاح بفضل الله- تعالى- ورحمته.

وقد اشتملت هاتان الآيتان على الطهارة من العقائد الباطلة تَزَكَّى وعلى استحضار معرفة الله- تعالى- وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ وعلى أداء التكاليف الشرعية التي على رأسها الصلاة فَصَلَّى.

---

(١)تفسير السعدي(ص٩٢١).

وهذه المعاني هي التي وصلت صاحبها إلى الفلاح الذي ليس بعده فلاح»[1].

إذن من علامة زكاة القلب كثرة ذكر الله بالقلب واللسان، والمحافظة على إقامة الصلاة، قال تعالى في صفة عباده الذين زكت قلوبهم في كثرة ذكرهم لله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال تعالى حاثاً عباده على كثرة ذكر الله بعد الصلاة: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾ [النساء: ١٠٣].

---

(١)التفسير الوسيط لطنطاوي (١٥/ ٣٦٨).

المسألة الخامسة: الصدقة وأثرها في تزكية القلب، وكثرة الصدقات من أعظم العلامات الدالة على زكاة القلب، فهي تزكي القلب وتطهره، وتدل على زكاته وصلاحه وسلامته، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

قال ابن تيمية رحمه الله: «الزكاة هي اسم لما تزكو به النفس؛ وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها والإحسان إلى الناس من أعظم ما تزكو به النفس؛ كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾»[(١)].

وقال ابن عثيمين رحمه الله: «فإن قيل: ما الحكمة من الزكاة؟

قلنا: اقرأ قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، هذا أفضل شيء، تطهرهم من الذنوب؛ لأن الصدقة تطفئ الخطيئة، {وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا}، أي: تزكي أخلاقهم ودينهم؛ لأنه يبذل ما يحب فيما يحبه الله عز وجل، ولا يمكن أن يبذل الإنسانُ محبوباً له إلا لما هو أحب، كذلك تزكي أخلاقهم بالكرم والسخاء والرخاء.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن من أسباب انشراح الصدر الصدقةَ والبذلَ[(٢)]، وهذا معنى خفي كلما كان الإنسان أشد بذلاً للمال كان أوسع صدراً، لا سيما إذا كان يؤمن بأنه يقربه إلى الله عز وجل، وأنه يكفر سيئاته، وما أشبه ذلك»[(٣)].

وقال رحمه الله أيضاً: «وسميت زكاة؛ لأنها تزكي الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ فهي تزكي الإنسان في أخلاقه،

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٩٩).

(٢) ينظر: زاد المعاد ط عطاءات العلم (٢/ ٣٠).

(٣) تفسير العثيمين: الأنعام (ص٩٠).

وعقيدته، وتطهره من الرذائل؛ لأنها تخرجه من حظيرة البخلاء إلى حظيرة الأجواد، والكرماء؛ وتكفِّر سيئاته»[1].

وقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧-١٨].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: يصرف ماله في طاعة ربه؛ ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا»[2].

وقال ابن عثيمين رحمه الله في معنى الآية: «﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أي: يجنب هذه النار التي تلظى ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ والأتقى اسم تفضيل من التقوى يعني: الذي اتقى الله تعالى حق تقاته. ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ يعني: يعطي ماله من يستحقه على وجه يتزكى به، أي: يتطهر به»[3].

وبناء على ما سبق فخلاصة القول أن الزكاة وكثرة الصدقات بها تزكوا القلوب، وهي كذلك من أبرز المظاهر والعلامات الدالة على زكاة القلب.

---

(١) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (١/ ٣٦٣).

(٢) تفسير ابن كثير – ت السلامة (٨/ ٤٢٢).

(٣) تفسير العثيمين: جزء عم (ص٢٣١).

المسألة السادسة: غض البصر وأثره في زكاة القلب، وهو من أعظم مظاهر زكاة القلب، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

ومن العلامات والمظاهر البارزة الدالة على زكاة القلب وصلاحه غض النظر عن رؤية من يحرم رؤيته كالنساء، وفي الآية قدم الله غض البصر على حفظ الفرج؛ لأنه أعظم وسيلة لحفظ الفرج.

وقد لخص ابن القيم رحمه الله فوائد غض البصر على صاحبه، فقال: «ولهذا كان غضُّ البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر، جليلة القدر: «**إحداها: حلاوة الإيمان ولذَّته،** التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله؛ فإن من ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه، والنفس مُولَعةٌ بحب النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائد القلب، فيبعث رائده لينظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله؛ تحرك اشتياقًا إليه، وكثيرًا ما يَتعبُ ويُتْعِبُ رسوله ورائده، كما قيل:

وَكُنْتَ مَتى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ... لِقَلبِكَ يَومًا أَتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ

رَأَيْتَ الَّذي لا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ ... عَلَيْه وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابرُ

فإذا كفَّ الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته؛ فإن النظر يُولِّد المحبة، فتبدأ علاقةً يتعلق بها القلب بالمنظور إليه، ثم تَقوى فتصير صَبَابةً، ينصبُّ إليه القلب بكُلِّيته، ثم تقوى فتصير غرامًا، يلزم القلب كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه، ثم يقوى فيصير عِشقًا، وهو الحب المفرط، ثم يقوى فيصير شغفًا، وهو الحب الذي قد وصل إلى شَغاف القلب وداخله، ثم يقوى فيصير تَتَيُّمًا، والتتيُّم: التعبد، ومنه: تَيّمه الحُبُّ إذا عَبّده، وتَيْمُ اللهِ: عبد الله، فيصير القلب عبدًا لمن لا يصلح أن يكون هو عبدًا له، وهذا كله جناية النظر، فحينئذٍ يقع القلب في الأسر، فيصير

أسيرًا بعد أن كان ملِكًا، ومسجونًا بعد أن كان مُطْلقًا، يتظلم من الطرف ويشكوه، والطرف يقول: أنا رائدك ورسولك، وأنت بعثتني.

وهذا إنما تُبْلَى به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له؛ فإن القلب لا بد له من التعلق بمحبوب، فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلا بد أن يتعبد قلبه لغيره، قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤]، فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه مع كونها ذات زوج، ويوسف عليه السلام لما كان مخلصًا لله نجا من ذلك، مع كونه شابًّا عَزَبًا غريبًا مملوكًا.

الفائدة الثانية: في غض البصر نور القلب وصحة الفراسة.

قال أبو شجاع الكرماني: «من عَمَرَ ظاهره باتباع السنة، وباطنَه بدوام المراقبة، وكفَّ نفسه عن الشهوات، وغضَّ بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال، لم تُخطئ له فراسة»[(١)].

وقد ذكر سبحانه قصة قوم لوط وما ابتُلوا به، ثم قال بعد ذلك: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ} [الحجر: ٧٥]، وهم المتفرِّسون الذين سلِموا من النظر المحرَّم والفاحشة، وقال تعالى عَقِيبَ أمره للمؤمنين بغضّ أبصارهم وحفظ فروجهم: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النور: ٣٥].

وسرُّ هذا أن الجزاء من جنس العمل، فمن غضَّ بصره عما حرَّمه الله عليه عوّضه الله من جنسه ما هو خير منه؛ فكما أمسك نورَ بصره عن المحرمات، أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يَغُضَّه عن محارم الله، وهذا أمر يُحِسُّهُ الإنسان من نفسه؛ فإن القلب كالمرآة، والهوى كالصدأ فيها، فإذا خلصت من الصدأ انطبعت فيها

---

(١) ينظر: حلية الأولياء – ط السعادة (١٠/ ٢٣٧).

صُوَر الحقائق كما هي عليه، وإذا صَدِئتْ لم ينطبع فيها صور المعلومات، فيكون علمه وكلامه من باب الخَرْص والظنون.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله بقوَّته سلطان النصرة، كما أعطاه بنوره سلطان الحجة، فيجمع له بين السلطانين، ويهرب الشيطان منه، كما في الأثر: «إن الذي يخالف هواه يَفْرَق الشيطان من ظلِّه»(١)، ولهذا يوجد في المتَّبع هواه مِنْ ذُلِّ النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه، فإنه سبحانه جعل العز لمن أطاعه والذل لمن عصاه، قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: ٨]، وقال تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: ١٠]، أي من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله: بالكلم الطيب والعمل الصالح.

وقال بعض السلف: «الناس يطلبون العزَّ بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله»(٢).

وقال الحسن: «وإن هَمْلَجتْ بهم البَراذين، وطَقْطقَتْ بهم البغال، إن ذُلَّ المعصية لفي قلوبهم، أبى الله إلا أن يُذِلّ من عصاه»(٣).

وذلك أن من أطاع الله فقد والاه، ولا يَذِلُّ من والاه ربُّه، كما في دعاء القنوت: «إنه لا يَذِلُّ من واليت، ولا يَعِزُّ من عاديت»(٤)(٥).

---

(١) نقله أبو نعيم عن مالك بن دينار في حلية الأولياء – ط السعادة (٢/ ٣٦٥).

(٢) مجموع الفتاوى، وقال: في كلام الشيوخ وذكره (١٥/ ٤٢٦).

(٣) نقله عنه في مجموع الفتاوى(١٥/ ٤٢٦).

(٤) أخرجه أبو داود (٢/ ٦٣ ت محيي الدين عبد الحميد)ح(١٤٢٥)، والترمذي (٢/ ٣٢٨)ح(٤٦٤)، وابن ماجه (١/ ٣٧٢ ت عبد الباقي)ح(١١٧٨)، وحكم الألباني بصحته في تعليقه على سنن ابي داود.

(٥)إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (١/ ٧٤– ٧٨ ط عطاءات العلم).

المبحث السادس: من ثمرات زكاة القلب، وفيه عدة مطالب.

توطئة.

وقد مر الإشارة إلى بعض هذه الثمرات من خلال المباحث السابقة، وفي هذا المبحث أشير إلى بعض التفصيلات اليسيرة بحول الله وقوته وإعانته.

المطلب الأول: سلامة القلب.

وهو من أعظم ثمرات زكاة القلب، وسنفصل الحديث عنها قليلاً، وفق المسائل الآتية:

المسألة الأولى: الدليل عليه، ومعناه.

أولاً: الدليل عليه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣-٨٤].

وكان من أدعية النبي ﷺ في ضمن دعاء له منه: «..وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا..»، والدعاء لفظه يقول ﷺ: " إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ "[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٣٨ ط الرسالة)ح(١٧١١٤)، والنسائي (٣/ ٨٩)ح(١٣٠٤)، والحاكم (١/ ٦٨٨)ح(١٨٧٢) وصححه وأقره الذهبي، وقال محقق المسند: "حسن بطرقه"، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٧/ ٦٩٥)ح(٣٢٢٨):«وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات، وفي بعضهم خلاف لا يضر».

ثانياً: معناه.

وقد فسر النبي ﷺ سلامة القلب بقوله: «هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ»، كما في الحديث قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ» ، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ، نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: «هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ»(١).

وقال ابن عطية رحمه الله في تفسيره في معنى القلب السليم: «قال المفسرون: يريد من الشرك والشك وجميع النقائص التي تلحق قلوب بني آدم كالغل والحسد والكبر ونحوه»(٢).

وقال ابن القيم رحمه الله: «وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمرُ الجامع لذلك: أنه الذي قد سَلِمَ من كل شهوة تخالف أمرَ الله ونهيَه، ومن كل شبهةٍ تُعارِض خبره، فسَلِم من عبودية ما سواه، وسَلِم من تحكيم غير رسوله؛ فسلِم من محبة غير الله معه، ومن خوفه ورجائه والتوكلِ عليه، والإنابة إليه، والذلِّ له، وإيثارِ مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق. وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلُح إلا لله وحده.

فالقلب السليم هو الذي سَلِمَ من أن يكون لغير الله فيه شركٌ بوجهٍ ما، بل قد خلصتْ عبوديته لله تعالى: إرادةً، ومحبةً، وتوكلًا، وإنابةً، وإخباتًا، وخشيةً، ورجاءً،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤٠٩ ت عبد الباقي)ح(٤٢١٦)، وصحح إسناده العراقي في تخريج أحاديث الإحياء(ص٨٩٠)ح(٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٩٩)ح(٢٨٨٩)، وصححه شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لسنن ابن ماجه (٥/ ٢٩٩ ت الأرنؤوط)ح(٤٢١٦).

(٢) تفسير ابن عطية (٤/ ٤٧٨).

وخلصَ عملُه لله، فإن أحبَّ أَحَبَّ في الله، وإن أبْغضَ أبْغضَ في الله، وإن أعْطَى أعطى لله، وإن مَنَع منع لله.

ولا يكفيه هذا حتى يَسْلَم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله ﷺ، فيَعقِد قلبَه معه عقدًا محكمًا على الائتمام والاقتداء به وحدَه دون كل أحد، في الأقوال والأعمال: أقوال القلب وهي العقائد؛ وأقوال اللسان وهي الخبر عما في القلب؛ وأعمال القلب، وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها؛ وأعمال الجوارح، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دِقّه وجِلّه هو ما جاء به الرسول ﷺ، فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل»[1].

وقال رحمه الله أيضاً: «والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك، والغِلّ، والحقد، والحسد، والشحّ، والكبر، وحبّ الدنيا والرياسة. فسلِمَ من كلّ آفة تُبعده من الله، وسلِمَ من كلّ شبهة تعارض خبرَه، ومن كلّ شهوة تعارض أمرَه، وسلِمَ من كل إرادة تزاحم مراده، وسلِمَ من كلّ قاطع يقطع عن الله.

فهذا القلب السليم في جنّة معجّلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي الجنّة يوم المعاد.

ولا تتمّ له سلامته مطلقًا حتى يسلَم من خمسة أشياء: من شركٍ يناقض التوحيد، وبدعةٍ تخالف السنّة، وشهوةٍ تخالف الأمر، وغفلةٍ تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص»[2].

وقال السعدي رحمه الله في معنى القلب السليم: «والقلب السليم معناه الذي سلم من الشرك والشك ومحبة الشر والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته

---

(١)إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (١/ ١٠-١١ ط عطاءات العلم).

(٢)الداء والدواء (ص٢٨٢-٢٨٣).

مما ذكر اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله، وهواه تابعاً لما جاء عن الله»[1].

(١)تفسير السعدي (ص٥٩٣).

المسألة الثانية: أسباب سلامة القلب[1].

ولسلامة القلب أسباب كثيرة أذكر منها على سبيل المثال:

أولاً: الدعاء.

وهو من أعظم أسباب سلامة القلب، قال تعالى عن دعاء عباده الصالحين الذين يأتون بعد الصحابة –رضوان الله عليهم– إلى يوم القيامة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

والشاهد معنا دعاؤهم: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي لا تجعل في قلوبنا غشاً وحسداً وبغضاً[2] **للذين آمنوا.**

وقال الشوكاني رحمه الله: «أمرهم الله سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من الله سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغل للذين آمنوا على الإطلاق، فيدخل في ذلك الصحابة دخولاً أولياً لكونهم أشرف المؤمنين، ولكون السياق فيهم، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم ويطلب رضوان الله لهم فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية، فإن وجد في قلبه غلاً لهم فقد أصابه نزغ من الشيطان، وحل به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه وخير أمة نبيه ﷺ، وانفتح له باب من الخذلان يفد به على نار جهنم إن لم يتدارك نفسه باللجوء إلى الله سبحانه والاستغاثة به بأن ينزع عن قلبه ما طرقه من الغل لخير القرون وأشرف هذه

---

(١) ينظر في ذلك: سلامة الصدر (ص٤٣-٧٤)، موسوعة الأخلاق" الوسائل المعينة على سلامة الصدر" موقع الدرر السنية على الشبكة ، محاضرة للدكتور خالد السبت في موقعه على الشبكة بعنوان: "سلامة الصدر".

(٢) تفسير البغوي(٧٩/٨).

الأمة، فإن جاوز ما يجده من الغل إلى شتم أحد منهم، فقد انقاد للشيطان بزمام ووقع في غضب الله وسخطه»[1].

وقد مر معنا دعاء النبي ﷺ بذلك، فكان يقول ﷺ ضمن دعائه: «..وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا..».

ومما ورد في السنة من الدعاء بإذهاب سخيمة القلب، يقول ﷺ ضمن دعاء طويل: «وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي».

ومعناه: " وَاسْلُلْ " أي أخرج، ومعنى:"سَخِيمَة قَلْبِي" يقول علي القاري رحمه الله: «أي غشه وغله وحقده وحسده ونحوها، مما ينشأ من الصدر ويسكن في القلب من مساوئ الأخلاق»[2].

ولفظ الدعاء بطوله: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو: " رَبِّ أَعِنِّي وَلا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى إِلَيَّ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا، لَكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي»[3].

---

(١)فتح القدير(٥/ ٢٤٠).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ١٧٢٤).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٢ ط الرسالة)ح(١٩٩٧)، وأبو داود (٢/ ٨٣ ت محيي الدين عبد الحميد)ح(١٥١٠)، والترمذي بلفظ مقارب(٦/ ١٥٢)ح(٣٨٦٥)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٩ ت عبد الباقي)ح(٣٨٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع(١/ ٦٥٦)ح(٣٤٨٥) وصحح اسناده محقق المسند(٣/ ٤٥٢ ط الرسالة)ح(١٩٩٧).

ثانياً: ومن أسباب سلامة القلب إخلاص العمل لله تعالى، والنصيحة لولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، وقد جمعت هذه الأسباب في الحديث الآتي، يقول ﷺ: "..ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ، تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ"(١).

فهذه ثلاثة أعمال لها أثر عظيم في سلامة القلب وهي:

- "إخلاص العمل لله".
- "النصيحة لولاة المسلمين".
- "ولزوم جماعتهم".

ومما يدل عليه الحديث:

١- قال ابن القيم رحمه الله معلقًا على هذا الحديث في بيان أثر هذه الأعمال على سلامة القلب: "أي: لا يبقى فيه غل، ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غله، وتنقيه منه، وتخرجه عنه، فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل، وكذلك يغل على الغش، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة، فهذه الثلاثة تملؤه غلًّا ودغلًا(٢)، ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة"(٣).

٢- وإذا تحققت هذه الأعمال الثلاثة من: الإخلاص لله، ومناصحة ولاة الأمر، وعدم

---

(١) أخرجه أحمد ط الرسالة (٢٧/ ٣١٨) ح(١٦٧٥٤)، وابن ماجه (٢/ ١٠١٥) ح(٣٠٥٦)، والحاكم (١/ ١٦٢) ح(٢٩٤) وصححه وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٢/ ١١٤٥) ح(٦٧٦٦).

(٢) الدغل: عيب وفساد في الشيء.

ينظر: الصحاح (٤/ ١٦٩٧)، مقاييس اللغة (٢/ ٢٨٤)، المعجم الوسيط (١/ ٢٨٨).

والمقصود هنا أن هذه الأمور الثلاثة التي ذكرها الحديث إذا وجدت في القلب دب إليه الفساد، وانطوى على العيوب، والله أعلم.

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٨٩-٩٠).

الخروج على جماعة المسلمين وإمامهم، وجاهد المسلم نفسه على الالتزام بهذه الخصال العظيمة، سلم له قلبه من مرض الغل.

٣- ومرض الغل يستغله الشيطان في إبعاد المسلم عن المنهج الصحيح منهج أهل السنة والجماعة؛ ليوقعه في طرق البدعة، فيجر على نفسه الشر، ويفتح الباب للأعداء للتسلط عليه.

٤- وما يحصل بين المسلم وأخيه من تنازع وخصام يفرح به الشيطان وحزبه، فذلك ناتج عن غل القلوب بسبب ضعف الإخلاص والخلل في المقاصد.

ثالثاً: صيام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر، لقوله ﷺ: " صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ، وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، يُذْهِبْنَ وَحَرَ الصَّدْرِ "[1].

وفي تحفة الأحوذي: «وحر الصدر بفتح الواو والحاء المهملة أي: غشه ووساوسه، وقيل: الحقد والغيظ، وقيل: العداوة، وقيل: أشد الغضب،كذا في النهاية[2]»[3].

فإذا المسلم على صيام ثلاثة من كل شهر مع صيام رمضان سلم له قلبه من الغش والحقد والغيظ والعداوة وشدة الغضب، وكان ذلك من أسباب سلامة قلبه.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨/ ١٦٨ ط الرسالة)ح(٢٣٠٧٠)، وبلفظ مقارب في السنن الكبير للبيهقي (١٣/ ١٣٥ ت التركي)ح(١٢٨٧٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٢/ ٧٠٩)ح(٣٨٠٤)، وصحح إسناده محقق المسند(٣٨/ ١٦٨ ط الرسالة).

(٢) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٦٠).

(٣)تحفة الأحوذي (٦/ ٢٧٥).

رابعاً: الإقبال على كتابة الله تلاوة وتدبراً فإن فيه شفاء القلوب، وهو من أعظم أسباب سلامة القلب، قال تعالى عنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

وهو كتاب مبارك فيه أعظم أسباب صلاح القلب وسلامته إذا أقبل عليه العبد متدبراً لآياته، قال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

خامساً: دفع السيئة بالحسنة، وهذا من أسباب سلامة القلب من الضغائن والأحقاد، ومما يعين عليه –إذا أحس العبد بضعف نفسه عن ذلك– الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[فصلت: ٣٤-٣٥].

قال ابن جرير رحمه الله: «يقولُ تعالى ذكرُه لنبيّه محمدٍ ﷺ: ادفَعْ يا محمدُ بحلمِك جهلَ مَن جهِلَ عليك، وبعفوِك عمَّن أساءَ إليك إساءةَ المسيءِ، وبصبرِك عليهم مكروهَ ما تَجِدُ منهم ويَلْقاك من قِبَلِهم..، وقولُه: {فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)}. يقولُ تعالى ذكرُه: افعَلْ هذا الذي أمَرتُك به يا محمدُ، من دفعِ سيئةِ المسيءِ إليك بإحسانِك الذي أمَرْتُك به إليه، فيصيرَ المسيءُ إليك الذي بينَك وبينَه عداوةٌ كأنه من ملاطفتِه إيَّاك وبرِّه لك وليٌّ لك من بنى أعمامِك، قريبُ النسبِ بك. والحميمُ هو القريبُ..، وقوله: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} الآية، يقولُ تعالى ذكرُه: وإما يُلْقِيَنَّ الشيطانُ يا محمدُ في نفسِك وسوسةً من حديثِ النفسِ، إرادةَ حملِك على مجازاةِ المسيءِ بالإساءةِ، ودعائِك إلى مساعتِه، فاستَجِرْ باللَّهِ، واعتَصِمْ من خُطُواتِه، إن اللَّهَ هو السميعُ لاستعاذتِك منه واستجارتِك به من نزغاتِه، ولغيرِ ذلك من كلامِك وكلامِ غيرِك، العليمُ بما أَلقي في نفسِك من نزغاتِه، وحدَّثَتْك به نفسُك، وبما يُذْهِبُ ذلك من قلبِك، وغيرِ ذلك من أمورِك وأمورِ خلقِه»[(١)].

وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

قال القرطبي رحمه الله في معنى الآية: "أمر بالصفح ومكارم الأخلاق، فما كان منها لهذه

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ٤٣٢-٤٣٥).

الأمة فيما بينهم فهو محكم باق في الأمة أبداً.

وما كان فيها من معنى موادعة الكفار وترك التعرض لهم والصفح عن أمورهم فمنسوخ بالقتال"[1].

وقال السعدي رحمه الله: «هذا من مكارم الأخلاق، التي أمر الله رسوله بها فقال: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ} أي: إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء، ومن مصالح ذلك، أنه تخف الإساءة عنك، في الحال، وفي المستقبل، وأنه أدعى لجلب المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل، وليتصف العافي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عدوه الشيطان، وليستوجب الثواب من الرب»[2].

(١)تفسير القرطبي(١٢/ ١٤٧).

(٢)تفسير السعدي(ص٥٥٨).

سادساً: ومن أسباب سلامة القلب إفشاء السلام ونشره بين الناس على من عرفت ومن لم تعرف، لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ"(١).

ومعنى قوله ﷺ: "أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ": «أي أعلنوه وعموا به من عرفتموه وغيره، فإنه يزيل الضغائن ويورث التحابب»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٣)ح(٩٣).

(٢) تحفة الأحوذي (٧/ ١٨٠).

سابعاً: الهدية لها أثر عظيم في تأليف القلوب وحصول المودة والمحبة، وإزالة ما في القلوب من الغل والشحناء، قال ﷺ: "تَهَادَوا تَحابُّوا"(١).

وقال ﷺ: " تَهَادَوْا، فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَغَرَ الصَّدْرِ "(٢).

وفي لفظ الترمذي: «تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ»، وسيأتي الكلام عليه في التخريج.

ووغر الصدر ووحره كلاهما بمعنى متقارب.

وفي النهاية في غريب الحديث:" وغر الصدر: الغل والحرارة"(٣).

و"وحر الصدر" كما سبق هو: غشه ووساوسه، وقيل: حقده وغيظه، وقيل: العداوة، وقيل: أشد الغضب.

---

(١) أخرجه البخاري في لأدب المفرد – بأحكام الألباني – ت الزهيري(ص٣٠٦)ح(٥٩٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٢/ ٢٩٦ ت التركي)، وجود إسناده العراقي في تخريج أحاديث الإحياء(ص٤٧٨)ح(١٠)، وحسن إسناده ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ١٩٨٢ ط أضواء السلف)ح(٤٢٩٤)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب(ص٢٢١)ح(٥٩٤).

(٢) بهذا اللفظ أخرجه أحمد (١٥/ ١٤١ ط الرسالة)ح(٩٢٥٠)، وأبو داود الطيالسي (٤/ ٩٤)ح(٢٤٥٣)، وحسنه محقق المسند(١٥/ ١٤١ ط الرسالة)ح(٩٢٥٠)، وأخرجه الترمذي بلفظ (٤/ ٢٠٨)ح(٢١٣٠) قال ﷺ: "تَهَادَوْا، فإِنَّ الهَدِيّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ شِقَّ فِرْسِنِ شَاةٍ» وضعفه بقوله:" هذا حديث غريب من هذا الوجه وأبو معشر اسمه نجيح مولى بني هاشم وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه"، ونقل في نصب الراية (٤/ ١٢١) عن ابن القطان قوله: «وأبو معشر هذا مختلف فيه، فمنهم من يضعفه، ومنهم من يوثقه، فالحديث من أجله حسن»، وقال محقق سنن الترمذي– ط الرسالة (٤/ ٢٠٨): «حديث صحيح دون قوله: "تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر"، فإنها حسنة»، وهذا الجزء من أول الحديث ضعفه الألباني وصحح الشطر الثاني منه، ينظر: ضعيف سنن الترمذي (ص٢٤٣).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٠٨).

ثامناً: من أسباب سلامة القلب إحسان الظن بالمؤمنين، والبعد عن سوء الظن بهم،

يقول تعالى تعقيباً على حادثة الإفك: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

قال السعدي رحمه في تفسيره لهذه الآية: «ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام فقال: {لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا} أي: ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيراً، وهو السلامة مما رموا به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم، يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل، {وَقَالُوا} بسبب ذلك الظن {سُبْحَانَكَ} أي: تنزيهاً لك من كل سوء، وعن أن تبتلي أصفياءك بالأمور الشنيعة، {هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} أي: كذب وبهت، من أعظم الأشياء، وأبينها. فهذا من الظن الواجب، حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن، مثل هذا الكلام، أن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك»[(١)].

وقال تعالى آمراً عباده المؤمنين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

يقول الطبري رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «وقال جلَّ ثناؤُه: {اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ}. ولم يقُلْ: اجتنِبوا الظَّنَّ كلَّه. إذ كان قد أذِن للمؤمنين أن يظنَّ بعضُهم ببعضٍ الخيرَ، فقال: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} [النور: ١٢]. فأذِن اللَّهُ جلَّ ثناؤُه للمؤمنين أن يظنَّ بعضُهم ببعضٍ الخيرَ، وأن يقولوه، وإن لم يكونوا مِن قيلِه فيهم على يقينٍ»[(٢)].

---

(١) تفسير السعدي(ص٥٦٣).

(٢) تفسير الطبري (٢١/ ٣٧٣-٣٧٤).

تاسعاً: الابتعاد عن الوقوع في الذنوب، لأنها رأس كل شر، وبها تحدث أسباب الفرقة والاختلاف، وفساد القلوب، ويقول ﷺ: " وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا "[1].

(١) أخرجه أحمد (٩/ ٢٥٩ ط الرسالة)ح(٥٣٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٣٦٩)ح(٣٤٩٥)، وصححه محقق المسند بمجموع طرقه(٩/ ٢٦٠ ط الرسالة)ح(٥٣٥٧).

عاشراً: الحرص على حسن الأخلاق، فإنها من أعظم أسباب سلامة القلب، وقد سبق الإشارة إلى بعضها من إحسان الظن ورد السلام والهدية ودفع السيئة بالحسنة.

ومن الأخلاق التي لها أثر في سلامة القلب أذكر على سبيل المثال:

١- **تبسمك في وجه أخيك، وطلاقة الوجه عند لقائه، خلق جميل له أثر على سلامة القلب،** قال ﷺ: "تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ"(١).

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»(٢).

٢- **ومن الأخلاق الحسنة التي لها أثر كبير في سلامة القلب ما ورد في الحديث،** قال ﷺ:"أحبُّ الناسِ إلى الله أنْفَعُهم لِلنَّاسِ، وأحبُّ الأعْمالِ إلى الله عز وجل سرورٌ تُدْخِلُه على مسلمٍ، تَكْشِفُ عنه كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عنه دَيْناً، أوْ تَطْرُدُ عنه جُوعاً، ولأَنْ أَمْشي مَعَ أخٍ في حاجَة؛ أحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعْتَكِفَ في هذا المسجِدِ -يعني مسجدَ المدينَةِ- شَهْراً، ومَنْ كَظَم غيْظَهُ- ولو شاءَ أنْ يُمْضِيَهُ أمْضاهُ-؛ ملأَ الله قلْبَهُ يومَ القيامَةِ رِضاً، ومَنْ مَشى مَع أخيه في حاجَةٍ حتى يَقْضِيَها له؛ ثَبَّتَ الله قدَميْه يومَ تزولُ الأقْدامُ"(٣).

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه مرة مقتصراً على هذا اللفظ(١/ ٤٧٦)ح(٦٩٥)، ومرة بلفظ أطول من هذا (١/ ٤٧٧)ح(٦٩٨)، وأخرجه كذلك مطولاً الترمذي (٤/ ٣٣٩-٣٤٠)ح(١٩٥٦) وحسنه، ولفظه: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ البَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٢٠)ح(٢٦٨٥)، وصححه شعيب الارناؤوط في تحقيقه لسنن الترمذي-ط الرسالة (٤/ ٧٣)ح(٢٠٧٢).

(٢)أخرجه مسلم (٨/ ٣٧)ح(٢٦٢٦).

(٣)أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٢/ ١٠٦)ح(٨٦١)، والأصبهاني في الترغيب والترهيب (٢/ ٦٤)ح(١١٦٢)،

وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج بلفظ مقارب(٤٧)ح(٣٦)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/

٣- **ومن الأخلاق التي لها أثر في سلامة القلب**، ما ورد في قوله ﷺ: «المسْلِمُ أَخُو المسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

---

٧٠٩)ح(٢٦٢٣):"حسن لغيره"، وحسنه في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٥٧٤)ح(٩٠٦).

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٨)ح(٢٤٤٢).

الحادي عشر: البعد عن الأخلاق السيئة التي تدل على عدم سلامة القلب، وتؤدي إليه، ومن ذلك ما ورد من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

« إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا»[1].

(١) أخرجه البخاري (٨/ ١٩)ح(٦٠٦٤)،ومسلم (٨/ ١٠)ح(٢٥٦٣).

الثاني عشر: رضا العبد بما قسم الله له من أسباب سلامة القلب، يقول ابن القيم رحمه الله: «إنّ الرّضا يفتح له باب السلامة، فيجعل قلبه سليمًا نقيًّا من الغشّ والدَّغل والغلّ.

ولا ينجو من عذاب الله إلَّا من أتى الله بقلبٍ سليمٍ.

وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرّضا.

وكلَّما كان أشدَّ رضًا كان قلبه أسلم، فالخبث والدغل والغشُّ قرين السخط، وسلامةُ القلب وبرُّه ونصحه قرين الرّضا، وكذلك الحسد هو من ثمرات السخط، وسلامةُ القلب منه من ثمرات الرّضا»[1].

(١)مدارج السالكين (٢/ ٥٢٩ ط عطاءات العلم).

الثالث عشر: تسوية الصف في الصلاة، وله أثر في ترابط القلوب وسلامتها من الضغائن والأحقاد، وكما في حديث أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاةِ، وَيَقُولُ: «اسْتَوُوا، وَلَا تَخْتَلِفُوا، فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ: «فَأَنْتُمُ الْيَوْمَ أَشَدُّ اخْتِلَافًا»[1] .

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ»[2].

يقول النووي رحمه الله في معنى قوله ﷺ: " أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ ": «والأظهر والله أعلم أن معناه يوقع بينكم العداوة والبغضاء واختلاف القلوب، كما يقال تغير وجه فلان علي أي ظهر لي من وجهه كراهة لي وتغير قلبه علي؛ لأن مخالفتهم في الصفوف مخالفة في ظواهرهم، واختلاف الظواهر سبب لاختلاف البواطن»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٣٢٣) ح(٤٣٢).

(٢)أخرجه البخاري (١/ ١٤٥)ح(٧١٧)، ومسلم (٢/ ٣١)ح(٤٣٦).

(٣)شرح النووي على مسلم (٤/ ١٥٧).

الرابع عشر: التماس المعاذير للناس من الأعمال التي تؤدي إلى سلامة القلب.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لأحد أبنائه: «يا بني إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم فلا تحملها على شيء من الشر ما وجدت لها محملاً من الخير»[(١)].

وقال جعفر الصادق رحمه الله: «إذا بلغك عن أخيك الشيء تكره فالتمس له عذرًا واحدًا إلى سبعين عذرًا، فإن أصبته وإلّا قل: لعلّ له عذرًا لا أعرفه»[(٢)].

وعن أبي قلابة الجرمي رحمه الله، قال: «إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك، فإن لم تجد له عذراً فقل في نفسك لعل لأخي عذراً لا أعلمه»[(٣)].

---

(١)حلية الأولياء وطبقات الأصفياء(٥/ ٢٧٨).

(٢)شعب الإيمان (١٠/ ٥٥٩ ط الرشد).

(٣)حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – ط السعادة (٢/ ٢٨٥).

الخامس عشر: أن يعود نفسه على العفو والصفح عن الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾[النور: ٢٢].

وقال تعالى في وصف عباده المتقين: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقَالَ عُقْبَةُ بن عامر ﷺ، ثُمَّ لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَابْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِفَوَاضِلِ الْأَعْمَالِ. فَقَالَ: " يَا عُقْبَةُ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ "(١).

وفي لفظ آخر، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ لِي: " يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ "(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٥٧٠ ط الرسالة)ح(١٧٣٣٤)، قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٦٧٣)ح(٢٥٣٦):"صحيح لغيره"، وحسنه محقق المسند(٢٨/ ٥٧٠ ط الرسالة)ح(١٧٣٣٤).

(٢)أخرجه أحمد (٢٨/ ٦٥٤ ط الرسالة)ح(١٧٤٥٣)، وصحح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة(٢/٥٥٢)ح(٨٩١) وحسن إسناده محقق المسند (٢٨/ ٦٥٥ ط الرسالة)ح(١٧٤٥٣).

السادس عشر: تعلق القلب بالآخرة، والزهد في الدنيا، فيستريح قلبه من التعلق بالرياسة وحطام الدنيا، لأن من أعظم أسباب عدم سلامة القلب تعلقه بالدنيا، والمنافسة فيها، فيهلك بسبب ذلك، قال رسول الله ﷺ: «فَوَاللهِ، مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[1]، وفي رواية للبخاري: «وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُم»[2].

وقال ﷺ لأصحابه ليبين لهم أثر التعلق بالدنيا: « إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللهُ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، تَتَنَافَسُونَ

ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٨٤) ح (٤٠١٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٣) ح (٢٩٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٩٠) ح (٦٤٢٥).

(٣) أخرجه مسلم (٨/ ٢١٢)ح(٢٩٦٢).

السابع عشر: مجاهدة النفس على كل ما سبق، والحرص على المحاسبة والاستمرار في ذلك وعدم الانقطاع، قال تعالى في بيان أثر المجاهدة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

"وقيل: لنوفقنهم لإصابة الطريق المستقيمة، والطريق المستقيمة هي التي يوصل بها إلى رضا الله ﷻ..، وقيل: المجاهدة هي الصبر على الطاعات.."[(١)].

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾ [العنكبوت: ٦].

ولأن مجاهدة النفس على التزكية صعبة تحتاج إلى متابعة ومحاسبة واستمرار في ذلك؛ ليحصل العبد على أسباب صلاح قلبه وسلامته.

ولذا يقول ابن القيم رحمه الله: «وتزكية النُّفوس أصعبُ من علاج الأبدان وأشدُّ»[(٢)].

ويقول أيضاً: «وقد اتفق السالكون إلى الله ـ على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم ـ على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يُدخَلُ عليه سبحانه ولا يُوصل إليه إلا بعد تركها، وإماتتها بمخالفتها، والظفر بها.

فإن الناس على قسمين:

قسم ظفرت به نفسه؛ فملكتْه وأهلكتْه، وصار طوعًا لها تحت أوامرها.

وقسم ظفروا بنفوسهم؛ فقهروها، فصارت طوعًا لهم، مُنقادةً لأوامرهم.

كما قال بعض العارفين: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم، فمن ظَفِر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك، قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٣٧ - ٤١].

---

(١) ينظر: تفسير البغوي

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٦ ط عطاءات العلم).

فالنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب تعالى يدعو العبد إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى، والقلب بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي مرة والى هذا مرة، وهذا موضع المحنة و الابتلاء»[1].

وهنا تنبيه مهم نختم به أسباب سلامة القلب، وهو أن هذه التزكية للقلوب لا سبيل إليها إلا من طريق الرسل عليهم السلام، يقول ابن القيم رحمه الله في بيان ذلك: «فإنّ تزكية النُّفوس مسلَّمٌ إلى الرُّسل صلوات الله وسلامُه عليهم، وإنّما بعثَهم الله لهذه التّزكية وولَّاهم إيّاها، وجعلَها على أيديهم دعوةً وتعليمًا وبيانًا وإرشادًا، لا خَلقًا ولا إلهامًا، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم.

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة: ٢]، وقال تعالى: {(١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا} [البقرة: ١٥١ - ١٥٢].

وتزكية النُّفوس أصعبُ من علاج الأبدان وأشدُّ، فمن زكّى نفسَه بالرّياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرُّسل فهو كالمريض الذي يعالج نفسَه برأيه دونَ معرفة الطّبيب، فالرُّسل أطبّاءُ القلوب، فلا سبيل إلى صلاحها وتزكيتها إلّا على أيديهم، وبمحض الانقيادِ والتّسليم لهم. والله المستعان»[2].

---

(١) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (١/ ١٢٥-١٢٦ ط عطاءات العلم).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٦ ط عطاءات العلم).

المسألة الثالثة: ثمرات سلامة القلب.

وسأذكر بإذن الله بعض الثمرات المتعلقة بسلامة القلب على سبيل الإشارة والاختصار، فمنها:

أولاً: ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩].

قال ابن عثيمين رحمه الله: «ذكر الله تبارك وتعالى مُبَيِّنًا أَنَّهُ لا ينفعُ الْإِنْسَانَ يومَ القيامةِ إِلَّا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ، فالمالُ والبنونَ لا ينفعونَ إِلَّا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ، وفي هَذَا الاستثناء دَليلٌ عَلَى أنَّ المدارَ عَلَى القَلْبِ، وَهُوَ أن يكونَ سَليمًا»[1].

ثانياً: إن سلامة القلب من الغل والحسد والغش للمسلمين من أسباب دخول الجنة، عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: " يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ " فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ، قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى. فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبِعَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَقَالَ: إِنِّي لَاحَيْتُ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ أَنَسٌ: وَكَانَ عَبْدُ اللهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثَ، فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَ، حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ. قَالَ عَبْدُ اللهِ: غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتِ الثَّلَاثُ لَيَالٍ وَكِدْتُ أَنْ أَحْقِرَ عَمَلَهُ، قُلْتُ: يَا

---

(١) تفسير العثيمين: الشعراء (ص١٥٩).

عَبْدَ اللهِ إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ ثَمَّ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مِرَارٍ: " يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ " فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلَاثَ مِرَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ، فَأَقْتَدِيَ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ. قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا،[وفي رواية غلاً]، وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيقُ[1].

مما يدل عليه:

١- سلامة القلب للمسلمين من الغل والحسد والغش من أسباب دخول الجنة.

٢- كثير من العبّاد يجد نشاطاً في العبادة، ويصعب عليه سلامة الصدر لإخوانه المسلمين من الغش والحسد والغل.

يقول الفضيل بن عياض رحمه الله:

"يكون شغلك في نفسك ولا يكون شغلك في غيرك، فمن كان شغله في غيره فقد مكر به.

وقال أيضاً: لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للأمة"[2].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق ت الأعظمي (ص٢٤١)ح(٦٩٤)، وأحمد (٢٠/ ١٢٤ ط الرسالة) ح(١٢٦٩٧)، والسنن الكبرى - النسائي - ط الرسالة (٩/ ٣١٨)ح(١٠٦٣٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٨/ ٧٩): «ورجال أحمد رجال الصحيح»، وقال محقق مسند أحمد (٢٠/ ١٢٥ ط الرسالة): «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط السعادة (٨/ ١٠٢-١٠٣).

قيل لأحد التابعين، يقال له أبو بشير، كان من أصحاب علي: أخبرني أعمال من كان قبلنا، يعني: من الصحابة ﷺ؟ قال: "كانوا يعملون يسيرًا، ويؤجرون كثيرًا"، فسئل عن سبب ذلك، قال: "لسلامة صدورهم"[1].

(١) الزهد لهناد بن السري (٢/ ٦٠٠).

ثالثاً: الوصول إلى أن يكون من أفضل الناس، كما سبق في الحديث قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ» ، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ، نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: «هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ»(١).

رابعاً: من أعظم أسباب قبول الأعمال الصالحة سلامة القلوب من الشحناء، كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»(٢).

خامساً: ومن ثمرات سلامة القلب جنة الدنيا المعجلة، وهي سعادة النفس وراحة القلب، فأي نعيم ولذة في الدنيا أعظم من نعيم سلامة القلب؟

ولا شك أن الحياة الطيبة، والعيش الطيب، والتلذذ بنعيم الدنيا هي في سلامة القلب.

سادساً: الاقتداء بالأنبياء والسير في طريقهم، فهم أعظم الخلق على الاطلاق في سلامة القلب.

"ويكفي أن الله تعالى لما ذكر نعيم أهل الجنة قال: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ} [الأعراف:٤٣].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤٠٩ ت عبد الباقي)ح(٤٢١٦)، وصحح إسناده العراقي في تخريج أحاديث الإحياء(ص٨٩٠)ح(٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٩٩)ح(٢٨٨٩)، وصححه شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لسنن ابن ماجه (٥/ ٢٩٩ ت الأرنؤوط)ح(٤٢١٦).

(٢) أخرجه مسلم (٨/ ١١)ح(٢٥٦٥).

فدل أن غل الصدر لا يجتمع مع النعيم أبدًا، فهو يكدره، تجد الإنسان أحيانًا في نعيم ولذات، ويكون في نزه، فإذا تذكر من يبغضه تنغصت عليه لذاته، وهو يريد أن ينام إذا تذكره ذهب عنه النوم وطار عن غامضه، فهذا عذاب في الدنيا قبل الآخرة.

{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر:٤٧]، فما مصلحة الإنسان أن يعذب قلبه، وأن يشقيه؟ ولربما كان ذلك الذي يبغضه ويحسده في غفلة عنه لا يدري ماذا يدور في نفسه وقلبه ودواخله"[١].

سابعاً: تدل على كمال الإيمان، يقول ابن رجب رحمه الله: «المؤمن يَسُرُّهُ ما يَسرُّ أخاه المؤمن، ويُريد لأخيه المؤمن ما يُريده لنفسه من الخير، وهذا كُلُّه إنَّما يأتي من كمالِ سلامةِ الصدر من الغلِّ والغشِّ والحسدِ، فإنَّ الحسدَ يقتضي أن يكره الحاسدُ أن يَفوقَه أحدٌ في خير، أو يُساويَه فيه؛ لأنَّه يُحبُّ أن يمتازَ على الناسِ بفضائله، وينفردَ بها عنهم، والإيمانُ يقتضي خلافَ ذلك، وهو أن يَشْرَكَه المؤمنون كُلُّهم فيَما أعطاه الله من الخير من غير أن ينقص عليه منه شيء»[٢].

ثامناً: إقبال الناس عليه ومحبتهم له، فالناس يحبون من يبتسم في وجوههم، ويكون طلق الوجه عند اللقاء، كما سبق في ذكر الأحاديث التي ترغب في ذلك.

---

(١) مقالة سلامة الصدر للدكتور خالد السبت على الشبكة.

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٠٦ ت الأرنؤوط).

المطلب الثاني: ومن ثمرات زكاة القلب، ذوق طعم الإيمان وحلاوته؛ لحديث النبي ﷺ: " ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عز وجل وَحْدَهُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يُعْطِ الْهَرِمَةَ وَلَا الدَّرِنَةَ وَلَا الْمَرِيضَةَ وَلَكِنْ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوَالِكُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عز وجل لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهَا وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بَشَرِّهَا، وَزَكَّى نَفْسَهُ " ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَمَا تَزْكِيَةُ النَّفْسِ؟ فَقَالَ: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عز وجل مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»[1].

المطلب الثالث: أن يرزقه الله الحياة الطيبة في الدنيا، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [لنحل: ٩٦-٩٧].

والحياة الطيبة في الدنيا مرتبطة بزكاة القلب وهي ثمرة من ثمراته، فإذا حقق العبد ما شرطته الآية من الإيمان والعمل الصالح وجد في الدنيا قبل الآخرة تلك الحياة الطيبة، وسيكون الحديث عنها باختصار في مسألتين:

المسألة الأولى: أقوال أهل التفسير في معنى الحياة الطيبة، وأين تكون؟

وقد لخص ابن الجوزي رحمه الله ماهي الحياة الطيبة وأين تكون في الآتي: "اختلفوا أين تكون هذه الحياة الطيبة على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها في الدنيا، رواه العوفي عن ابن عباس. ثم فيها للمفسرين تسعة أقوال:

أحدها: أنها القناعة، قاله علي عليه السلام، وابن عباس في رواية، والحسن في رواية، ووهب بن منبه.

والثاني: أنها الرزق الحلال، رواه أبو مالك عن ابن عباس. وقال الضحاك: يأكل حلالاً ويلبس حلالاً.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (١/ ٣٣٤)ح(٥٥٥)، والبيهقي في السنن الكبير (٨/ ٥٠ ت التركي)ح(٧٣٥١)، وصحح إسناده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٣٨)ح(١٠٤٦).

والثالث: أنها السعادة، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

والرابع: أنها الطاعة، قاله عكرمة.

والخامس: أنها رزق يوم بيوم، قاله قتادة.

والسادس: أنها الرزق الطيِّب، والعمل الصالح، قاله إسماعيل بن أبي خالد.

والسابع: أنها حلاوة الطاعة، قاله أبو بكر الوراق.

والثامن: العافية والكفاية.

والتاسع: الرضى بالقضاء، ذكرهما الماوردي.

والثاني: **أنها في الآخرة**، قاله الحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن زيد، وذلك إنما يكون في الجنة.

والثالث: **أنها في القبر**، رواه أبو غسّان عن شريك"[1].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٥٨٢).

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً -وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله -بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة.

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت»[(١)].

ثم رجح رحمه الله أن الحياة الطيبة تشمل كل ذلك مستنداً إلى دلاله السنة[(٢)].

والذي عليه أكثر المفسرين أن الحياة الطيبة في الدنيا، لأن حياة الآخرة دل عليها خاتمة الآية: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧][(٣)].

---

(١) تفسير ابن كثير - ت السلامة (٤/ ٦٠١)

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير - ت السلامة (٤/ ٦٠١).

(٣) ينظر: تفسير ابن عطية(٣/ ٤١٩)، وقال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٢٣١): «وأكثر المفسرين على أن هذه الحياة الطيبة هي في الدنيا لا في الآخرة».

وينظر أيضاً: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٤٢٤-٤٢٥ ط عطاءات العلم).

المسألة الثانية: أسباب الحياة الطيبة وعلاقتها بزكاة القلب.

السبب الأول: وقد جاءت أسباب الحياة الطيبة مجملة في الآية بقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ﴾ [النحل: ٩٧].

يقول الشنقيطي رحمه الله: « القرآن العظيم دل على أن العمل الصالح هو مما استكمل ثلاثة أمور:

الأول: موافقته لما جاء به النبي ﷺ؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر: ٧].

الثاني: أن يكون خالصًا لله تعالى؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾.

الثالث: أن يكون مبنيًا على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن الله يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فقيد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح.

وقد أوضح جل وعلا هذا المفهوم في آيات كثيرة، كقوله في عمل غير المؤمن: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ وقوله:

﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ إلى غير ذلك من الآيات»[1].

(١) أضواء البيان(٣/ ٤٢٢-٤٢٣ ط عطاءات العلم).

وإضافة إلى ما سبق من ذكر السبب الرئيس في الحياة الطيبة الذي نصت عليه الآية، دونك بعض الأسباب الأخرى بشيء من الاختصار:

السبب الثاني: الأسباب التي وردت في هذا الحديث، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" (١).

الثالث: ومن أسباب الحياة الطيبة ما ورد كذلك في هذا الحديث، قال ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»(٢).

الرابع: ومن الأسباب كذلك ما ورد في حديث عَبْد اللَّهِ بْنَ مُعَاوِيَةَ الْغَاضِرِيَّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عز وجل وَحْدَهُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يُعْطِ الْهَرِمَةَ وَلَا الدَّرِنَةَ وَلَا الْمَرِيضَةَ وَلَكِنْ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوَالِكُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عز وجل لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهَا وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّهَا، وَزَكَّى نَفْسَهُ " ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَمَا تَزْكِيَةُ النَّفْسِ؟ فَقَالَ: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عز وجل مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»(٣).

الخامس: ومن أسباب الحياة الطيبة ما ورد عن عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ أنه قال لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، يَقُولُ: " إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٢٠) ح(٦٩٤١)، ومسلم (١/ ٦٦) ح (٤٣).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٦٢)ح(٣٤).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (١/ ٣٣٤)ح(٥٥٥)، والبيهقي في السنن الكبير (٨/ ٥٠ ت التركي)ح(٧٣٥١)، وصحح إسناده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٣٨)ح(١٠٤٦).

قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ " يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»[1].

السادس: ومن أسباب الحياة الطيبة ما ورد في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

السابع: ومن أسباب الحياة الطيبة ما ورد في قوله ﷺ: «يَا بِلَالُ، أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا»[2]،وقال ﷺ:«وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧/ ٣٧٨ ط الرسالة)ح(٢٢٧٠٥)، وأبو داود واللفظ له (٤/ ٢٢٥ ت محيي الدين عبد الحميد)ح(٤٧٠٠)، وصححه الألباني في تعليقه على سنن أبي داود (٤/ ٢٢٥ ت محيي الدين عبد الحميد)ح(٤٧٠٠)، وصححه محقق مسند أحمد (٣٧/ ٣٧٩ ط الرسالة)(٢٢٧٠٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٩٦) ح (٤٩٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٣٠٧) ح (٧٨٩٢)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لسنن أبي داود (٧/ ٣٣٨) ح (٤٩٨٥) "إسناده صحيح".

(٣) أخرجه أحمد (٢١/ ٤٣٣) ح (١٤٠٣٧)، والنسائي (٧/ ٦١) ح (٣٩٤٠)، والحاكم (٢/ ١٧٤) ح (٢٦٧٦) وصححه ووافقه الذهبي، وصحح إسناده ابن حجر في الفتح(١١/٣٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٩٩) ح (٣١٢٤).

المطلب الرابع: توفيق الله العبد لحسن الأخلاق.

ومن الثمرات العظيمة لزكاة القلب أن يوفقه الله ويهديه لحسن الأخلاق، وقد سبق الكلام عن هذا، ولكن هنا بعض الإشارات العملية في هذه المسائل.

المسألة الأولى: أن يوفقه الله لحسن الخلق مع والديه.

وهذه إشارات إلى الجوانب العملية في حسن الخلق مع الوالدين من خلال النصوص الآتية:

أولاً: الإحسان إلى الوالدين، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

ومن الإحسان إلى الوالدين ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

ومن مواطن الإحسان في الآيتين الآتي:

١- لا تتأفف مما يحصل منهما عند الكبر، ومن ذلك لا تقل أف عند إزالة الأذى عنهما من بول وغائط وبزاق ومخاط ونحو ذلك.

٢- البعد عن الألفاظ التي يشعر منها بالنهر كرفع الصوت عليهما.

٣- اسمعهما دائماً القول الكريم اللين السهل الحسن الطيب.

٤- التواضع العظيم مع الذل لهما في غير معصية الله.

٥- كثرة الدعاء لهما بما ورد في الآية: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾، وكثرة الاستغفار لهما، ومن ذلك قوله تعالى في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وكما في دعاء نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ﴾ [نوح: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

وفي الآية من مظاهر الإحسان:

١- كثرة الشكر المتواصل للوالدين على ما قدماه للولد في حال صغره من التربية ونحوها.

قال السعدي في معنى شكر الوالدين: «بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما، وإكرامهما وإجلالهما، والقيام بمئونتهما واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل»[(١)].

٢- مصاحبتهما بالمعروف لو كانوا كافرين، وذلك بصحبة الإحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما في الكفر والمعاصي، فلا يجوز ذلك[(٢)].

---

(١) تفسير السعدي (ص٦٤٨).

(٢) ينظر: تفسير السعدي (ص٦٤٨).

ثانياً: ومن الجوانب العملية في بر الوالدين التي وردت في السنة:

١- **الدعاء لهما من ابنهما الصالح بعد مماتهما، وهذا من استمرار العمل الصالح بعد موتهما، الذي نص عليه حديث** أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١).

٢- **الصدقة عنهما وقد سبق الكلام على ذلك.**

٣- **لا يجاهد في سبيل الله إلا بإذنهما، وتقديم حقهما على الجهاد والهجرة مع رسول الله،** عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ: « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ: أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»(٢).

وعن عَبْدِ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، قَالَ: أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ، أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللهِ قَالَ: "فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟" قَالَ: نَعَمْ بَلْ كِلَاهُمَا. قَالَ: "فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللهِ؟" قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: "فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا"(٣).

٤- **إجابة دعوة الوالد حتى لو كان في الصلاة، فإنه يقطعها ويجيب، لعظيم حق الوالد، وذلك في صلاة التطوع، لحديث جريج الراهب في الصحيحين،** عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ -وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي؛ فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ. فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ. فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي. فَأَقْبَلَ

---

(١) أخرجه مسلم (٥/ ٧٣)ح(١٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٥٩)ح(٣٠٠٤)، ومسلم(٨/ ٣)ح(٢٥٤٩).

(٣) أخرجه مسلم (٨/ ٣)ح(٢٥٤٩).

عَلَى صَلَاتِهِ فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي. فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ. فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَقَالَتِ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ. قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاءُوا بِهِ فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ. فَصَلَّى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ الرَّاعِي. قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: لَا أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ، كَمَا كَانَتْ. فَفَعَلُوا.." الحديث[1].

٥- **تخصيص الأم بمزيد من البر لعظيم حقها،** عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ»[2].

٦- **صلة أصدقاء الأب والأم في حال حياتهما وبعد مماتهما،** عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ لَقِيَهُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ وَأَعْطَاهُ عِمَامَةً كَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ ابْنُ دِينَارٍ: فَقُلْنَا لَهُ: أَصْلَحَكَ اللهُ إِنَّهُمُ الْأَعْرَابُ وَإِنَّهُمْ يَرْضَوْنَ بِالْيَسِيرِ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: إِنَّ أَبَا هَذَا كَانَ وُدًّا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ"[3].

وأنواع الخلق الحسن في بر الوالدين كثيرة جداً، واكتفي بما سبق الإشارة إليه.

---

(١) أخرجه البخاري مختصراً(٢/ ٦٣)ح(١٢٠٦)، ومسلم واللفظ له (٨/ ٤)ح(٢٥٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٢)ح(٥٩٧١)، ومسلم (٨/ ٢)ح(٢٥٤٨).

(٣)أخرجه مسلم (٨/ ٦)ح(٢٥٥٢).

المسألة الثانية: حسن الخلق مع الأرحام.

ويظهر حسن الخلق مع الأرحام في صور كثيرة منها:

١- زيارتهم بنية صلة الرحم والتقرب إلى الله بذلك.

٢- الهدية وأثرها في زيادة الود والمحبة بين الأرحام.

٣- الاتصال بهم بواسطة الوسائل الحديثة.

٤- الصدقة عليهم.

٥- قضاء ديونهم.

٦- السعي في مصالحهم و القيام على خدمتهم.

٧- الدعاء لهم.

٨- رد السلام عليهم مع بشاشة الوجه.

٩- مشاركتهم في الأفراح والاتراح.

١٠- زيارة مرضاهم.

المسألة الثالثة: حسن الخلق مع الزوجة والأولاد.

ومن صور ذلك:

١- رد السلام إذا دخل عليهم في البيت.

٢- الرحمة والشفقة عليهم.

٣- التلطف وحسن الخطاب.

٤- العشرة مع الزوجة بالمعروف.

٥- الهدية لها أثر عظيم في الألفة والمحبة.

المسألة الرابعة: حسن الخلق مع الجيران.

ومن صور ذلك:

١- رد السلام عليهم، مع التبسم والبشاشة، والسؤال عن حالهم.

٢- الهدية للجار.

٣- زيارته وتلبية دعوته.

٤- المشاركة في الأفراح والأحزان.

٥- عيادته في حال مرضه.

٦- منع الأذى عنه بكل صوره:

- **منع أذى أطفاله له.**
- **منع أذى أهله له.**
- **عدم أذيته في بيته بالوقوف غير المناسب أمام بيته.**
- **عدم وضع المخلفات أمام بيته.**

٧- الصبر على من يصدر منه من أذى.

٨- تقديم المساعدة المالية له إذا كان محتاجاً، أو السعي في توفير احتياجات بيته، أو اقراضه.

٩- حفظه في أولاده في حال غيبته، بتوفير ما يحتاجونه.

١٠- البعد عن الأذية المعنوية بكل صورها:

- **إساءة الظن به.**
- **بغضه لأسباب غير مشروعة.**
- **تشويه سمعته.**

المطلب الخامس: المسارعة والمسابقة إلى رضوان الله والجنة.

ومن ثمرات زكاة القلب أن يوفقه الله للمسارعة والمسابقة إلى رضوان الله والجنة، والمنافسة في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال تعالى:﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال تعالى بعد أن ذكر صفات الجنة: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقال تعالى في بيان جزاء من تزكى: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٥-٧٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

ومن يوفق للمسارعة والمسابقة إلى مغفرة الله والجنة هم من زكت قلوبهم، فيجدون إعانة الله تحف بهم، وتوفيقه يكون حليفاً لهم، فيسارعون إلى الفرائض، ويسابقون إلى النوافل، ويتقربون إلى الله بذلك في هذه الدنيا، كما ذكر النبي ﷺ، فقال في الحديث القدسي: «إن الله قال: وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي

يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ» الحديث[1].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع (٨/ ١٠٥) ح (٦٥٠٢).

المطلب السادس: الفلاح في الدنيا والآخرة.

قال تعالى في بيان ذلك: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

وقال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ [فاطر: ١٨].

وهذا الفلاح في الدنيا والآخرة، ودونك بعض تفصيل ذلك بشيء من الاختصار في مسألتين:

المسألة الأولى: بعض مظاهر الفلاح في الدنيا، نوردها على سبيل الإجمال.

١- الإيمان الحق.

٢- الحرص على صفاء التوحيد ونقائه من الشرك بكل أنواعه، والسلامة من الطرق الموصلة إليه.

٣- الاعتصام بالكتاب والسنة في كل أحوال العبد.

٤- صلاح الباطن والظاهر.

٥- إخراج الزكاة طيبة بها نفسه، ومنها إخراج زكاة الفطر.

٦- الثبات وحسن الخاتمة.

٧- الإكثار من التوبة والاستغفار.

٨- توفيق الله له لإصلاح نفسه والسعي في إصلاح غيره.

٩- الإكثار من ذكر الله على كل أحواله.

١٠- الحرص على الجهاد في سبيل الله؛ لتكون كلمة الله هي العليا.

المسألة الثانية: الفلاح في الآخرة.

وهذا ما سيكون الحديث عنه في المطلب الآتي.

المطلب السابع: السعادة في الآخرة.

وسيكون الحديث عن ذلك باختصار، وفق المسائل الآتية:

المسألة الأولى: السعادة عند الموت.

ومن آثار زكاة القلب الفلاح عند الموت بالثبات من الله وحسن الخاتمة والبشارة بالجنة، قال تعالى عن تثبيت الله للمؤمن عند الموت: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال تعالى عن تطمين الملائكة للمؤمن عند موته بعدم الخوف والحزن، وبشارتهم له بالجنة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال تعالى عن المؤمن المتقي ولي الله، وما له من البشارة في الدنيا عند موته، وقبل ذلك – في حال حياته– بالرؤيا الصالحة يراها أو ترى له: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

المسألة الثانية: السعادة في القبر.

كما في حديث البراء ﷺ في وصف حال سعادة العبد المؤمن عند موته، وبعده في القبر، يقول ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ». قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ». قَالَ: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ -يَعْنِي بِهَا- عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عز وجل: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى». قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ». قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ».

قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِ» الحديث[1].

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٠/ ٤٩٩) ح (١٨٥٣٤)، والحاكم (١/ ٩٣) ح (١٠٧) وصححه ووافقه الذهبي، وقال في مجمع الزوائد(٣/ ٥٠) ح (٤٢٦٧): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح"، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٤٤) ح (١٦٧٦)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند (٣٠/ ٥٠٣) ح (١٨٥٣٤): "إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح".

المسألة الثالثة: السعادة في عرصات القيامة.

قال تعالى عن سعادة أهل الإيمان والعمل الصالح أهل الاستقامة في يوم القيامة، وهم تزف إليهم الشارات برضوان الله والفوز بالجنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

وقال تعالى: ﴿١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ [عبس: ٣٣-٣٩].

المسألة الرابعة: السعادة في الجنة.

أما السعادة الكبرى فهي في دخول الجنة والتنعم بنعيمها، يقول الله عنهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨-٧٣].

وفي الحديث القدسي الذي في الصحيحين: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[(١)].

وعَنْ صُهَيْبٍ ﷺ، قَالَ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]، وَقَالَ: " إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللَّهُ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ،

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٥١ ط السلطانية)ح(٧٥١٨)، ومسلم (٨/ ١٤٤ ط التركية)ح(٢٨٢٩).

فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ – يَعْنِي إِلَيْهِ – وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ "[1].

ومن كمال نعيمهم أنه إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي مناد، كما في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْتَئِسُوا أَبَدًا. فَذَلِكَ قَوْلُهُ عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]»[2].

وقفة مع أحاديث أقل أهل الجنة نعيماً، وقياس ما يعطى في الجنة من عظيم النعيم على أدنى أهل الجنة نعيماً؛ لترى مقدار السعادة التي يتنعمون بها، نسأل الله من فضله:

– وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْوًا، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ»، قَالَ: «فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا –أَوْ: إِنَّ لَكَ عَشَرَةَ أَمْثَالِ الدُّنْيَا–»، قَالَ: «فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِي –أَوْ: أَتَضْحَكُ بِي– وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟!»، قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: «فَكَانَ يُقَالُ: ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً»[3].

– وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ، فَهُوَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣١/ ٢٧٠ ط الرسالة)ح(١٨٩٤١)، وسنن ابن ماجه (١/ ٦٧ ت عبد الباقي)ح(١٨٧) وصححه الألباني ومحقق المسند.

(٢) أخرجه مسلم (٨/ ١٤٨ ط التركية)ح(٢٨٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ١١٧) ح (٦٥٧١)، ومسلم(١/ ١٧٣) ح (١٨٦).

يَمْشِي مَرَّةً، وَيَكْبُو مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّي إِنَّ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا، فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَيَيْنِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْخِلْنِيهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَا يَصْرِينِي مِنْكَ؟ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟! قَالَ: يَا رَبِّ، أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟»، فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ، فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «مِنْ ضَحِكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»(١).

- وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً رَجُلٌ صَرَفَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ قِبَلَ الْجَنَّةِ، وَمَثَّلَ لَهُ شَجَرَةً ذَاتَ ظِلٍّ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، قَدِّمْنِي إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ أَكُونُ فِي ظِلِّهَا»، وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِنَحْوِ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَلَمْ يَذْكُرْ: «فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَا يَصْرِينِي مِنْكَ؟» إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ، وَزَادَ فِيهِ: «وَيُذَكِّرُهُ اللهُ: سَلْ كَذَا

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٧٤) ح (١٨٧).

وَكَذَا، فَإِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ اللهُ: هُوَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ»، قَالَ: «ثُمَّ يَدْخُلُ بَيْتَهُ، فَتَدْخُلُ عَلَيْهِ زَوْجَتَاهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، فَتَقُولَانِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَاكَ لَنَا، وَأَحْيَانَا لَكَ»، قَالَ: «فَيَقُولُ: مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُعْطِيتُ»(١).

- وعن الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ﷺ يُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ عَلَى الْمِنْبَرِ يرفعه إلى النبي ﷺ قَالَ: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟! فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟! فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»، قَالَ: «وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الْآيَةَ [السجدة: ١٧]»(٢).

كل هذه الأدلة تقرب لنا شيئاً من نعيم الجنة، وذلك بقياس ما يعطى أقل أهل الجنة منزلة على أعلاهم في المنازل العالية.

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٧٥) ح (١٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ١٧٦) ح (١٨٩).

المبحث السابع: العوائق والموانع التي تعيق وتمنع من زكاة القلب.

وينتظم هذا المبحث في عدة مطالب:

المطلب الأول: عدم تقدير الله حق قدره.

حين يضعف في القلب تقدير الله حق قدره، يتمكن منه الشيطان ويتسلط عليه، فيوقعه في الشرك والشك والضلال، فيحرم حينئذ من زكاة القلب.

قال تعالى في بيان أن من أعظم أسباب الشرك عدم تقدير الله حق قدره: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

ونجد أن الله تعالى يربط في أكثر من آية بين عدم تقدير الله حق قدره والوقوع في الشرك، ومن ذلك هذه الآية السابقة، وأيضا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

وأسباب عدم تقدير الله حق قدره كثيرة ذكرتها في كتابي(وما قدروا الله حق قدره)، ولمن رغب في التوسع في هذا الموضوع العظيم، فالكتاب موجود على الشبكة في موقعي على موقع إكس توتير سابقاً، وكذلك الفيس بوك[1].

---

(١) على العنوان، د.ابراهيم بن حسن الحضريتي.

المطلب الثاني: الشيطان ومكره.

الشيطان أعظم عدو للإنسان، وهو أعظم سبب لفساد القلوب وبعدها عن أسباب زكاتها وسلامتها، وقد حذر الله منه في أكثر من آية، وبين سبحانه خططه في الإغواء والإفساد للعباد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۚ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الزخرف: ٦٢].

وقال تعالى في التحذير منه: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ الآية[الأعراف: ٢٧].

وقال تعالى في التحذير من استغلال الشيطان لأمراض القلوب: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: ٤٣].

وقال تعالى في التحذير من تزيين الشيطان لبني آدم: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾[العنكبوت: ٣٨].

وقال تعالى عن الشيطان وهو يتوعد بني آدم للسعي في إضلالهم بكل ما يستطيع إلا من استناه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٨].

وأما طرق الشيطان في إبعاد الإنسان عن زكاة قلبه فكثيرة، وقد أشارت الآيات السابقة إلى بعضها، ومن أبرزها فيما يتعلق بالقلب تزيين الباطل في القلب حتى يرغب فيه ويميل إليه، فتنبت في القلب أمراض القلوب، وسيأتي مزيد بيان لذلك في المطلب الآتي.

المطلب الثالث: أمراض القلوب.

ومرض القلب من أعظم ما يعيق العبد عن الوصول إلى زكاة قلبه والحصول عليها، وأمراض القلب التي تمنع من زكاة القلب كثيرة، وقد سبق الحديث عن بعضها بشيء من التفصيل[1]، وأضيف هنا بعض الأمثلة على سبيل الاختصار.

أولاً: النفاق.

وهو من أعظم أمراض القلوب وأشدها خطراً على صاحبه، وينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: نفاق اعتقادي.

القسم الثاني: نفاق عملي.

والقسم الأول هو النفاق الأكبر المخرج من ملة الإسلام الذي صاحبه في أسفل دركات النار لشدة خطره وعظيم ضرره على المسلمين، وهو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر، يقول تعالى عنهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٢-١٤٥].

وغالب هذا النفاق يقع في حق الرسول ﷺ، يقول ابن تيمية رحمه الله: «فالنفاق يقع كثيرًا في حق الرسول، وهو أكثر ما ذكره الله في القرآن من نفاق المنافقين في حياته»[2]، وهو ينقض قول القلب وعمله[3].

---

(١) ينظر: ص٥٠

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٩).

(٣) ينظر: كتابي: أثر عمل القلب على الشهادتين، نواقض الشهادتين، ومن ذلك: النفاق الاعتقادي وصوره.

القسم الثاني: النفاق العملي وهو الذي خاف منه الصالحون، وله أثر عظيم على إفساد القلب في إضعاف زكاته أو إبعاده عنها، ودونك إشارة في ذلك:

النفاق العملي وخوف السلف منه.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَرْبَعُ خِلاَلٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا "(١).

خوف السلف منه:

١- وروى الإمام أحمد في كتاب الإيمان قال الحسن: "والله ما أصبح على وجه الأرض مؤمن ولا أمسى على وجهها مؤمن إلا وهو يخاف النفاق على نفسه، وما أمن النفاق إلا منافق"(٢). ويقول الحسن: "والله ما مضى مؤمن ولا بقي إلا يخاف النفاق ولا أمنه إلا منافق"(٣).

٢- وعن معلى بن زياد قال: "سمعت الحسن يحلف في هذا المسجد بالله الذي لا إله إلا هو ما مضى مؤمن قط ولا بقي إلا وهو من النفاق مشفق، ولا مضى منافق ولا بقي إلا وهو من النفاق آمن. قال: وكان يقول: من لم يخف النفاق فهو منافق"(٤).

خوف الأكابر منه.

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٤/ ١٠٢) ح(٣١٧٨)، ومسلم (١/ ٧٨) ح(٥٨).

(٢) نقله عنه في فتح الباري لابن رجب (١/ ١٩٦).

(٣) نقله عنه في فتح الباري لابن رجب (١/ ١٩٦).

(٤) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي (ص١٢١).

«وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ»[1].

رجل مبشر بالجنة يأتي إلى حذيفة بن اليمان، ماذا يريد من حذيفة؟ اسمع إلى الخبر العجيب العظيم من هذا الرجل العظيم، أمر أقلقه وأقض مضجعه حتى يتأكد أنه سلم من ذلك الخطر العظيم، خطر النفاق الذي خاف منه، قال عمر بن الخطّاب ﷺ لحذيفة بن اليمان- وهو أمين السر الذي أعلمه النبيﷺبأسماء المنافقين- : "يا حذيفة، نشدتُك بالله، هل سمَّاني لك رسول الله ﷺ منهم؟ فقال: لا، ولا أزكّي بعدك أحدًا"[2].

«وقال الجعد أبو عثمان: قلت لأبي رجاء العطاردي: هل أدركت من أدركت من أصحاب النبي ﷺ يخشون النفاق قال: نعم، إني أدركت بحمد الله منهم صدرا حسنا، نعم شديدا نعم شديدا . وكان قد أدرك عمر.

وممن كان يتعوذ من النفاق من الصحابة: حذيفة، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري . وأما التابعون: فكثير، قال ابن سيرين: ما علي شيء أخوف من هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]. وقال أيوب: كل آية في القرآن فيها ذكر النفاق أخافها على نفسي. وقال معاوية بن قرة: كان عمر يخشاه وآمنه أنا ؟ .

وكلام الحسن في هذا المعنى كثير جدا. وكذلك كلام أئمة الإسلام بعدهم. قال زيد بن الزرقاء، عن سفيان الثوري: خلاف ما بيننا وبين المرجئة ثلاث:

نقول الإيمان قول وعمل، وهو يقولون: الإيمان قول ولا عمل

ونقول: الإيمان يزيد وينقص، وهم يقولون: لا يزيد ولا ينقص.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٨).

(٢) وهو في الزهد لوكيع (ص٧٩١) بلفظ مقارب.

ونحن نقول: النفاق، وهم يقولون: لا نفاق»[1].

(١) فتح الباري لابن رجب (١/ ١٩٣- ١٩٤).

سبب الخوف منه:

١- سرعة تقلب القلب بسبب الفتن.

عن جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا الدَّرْدَاءِ، وَهُوَ فِي آخِرِ صَلَاتِهِ وَقَدْ فَرَغَ مِنَ التَّشَهُّدِ يَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ النِّفَاقِ فَأَكْثَرَ مِنَ التَّعَوُّذِ مِنْهُ قَالَ: فَقَالَ جُبَيْرٌ: "وَمَا لَكَ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ أَنْتَ وَالنِّفَاقَ؟" فَقَالَ: "دَعْنَا عَنْكَ فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَقَلَّبُ عَنْ دِينِهِ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ فَيُخْلَعُ مِنْهُ"(١).

وفي لفظ أخر قال أبو الدرداء ﷺ « اللَّهُمَّ غَفْرًا ثَلَاثًا لَا يَأْمَنُ الْبَلَاءَ مَنْ يَأْمَنُ الْبَلَاءَ وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيُفْتَنُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ فَيَنْقَلِبُ عَنْ دِينِهِ»(٢).

٢- الأمن من مكر الله، وعدم الخوف من تقلب قلبه، وذهاب إيمانه.

لأن الأمن من مكر الله من صفات أهل الخسارة الذين غفلوا عن الله، ونسوا يوم الحساب، وتمادوا في غيهم وضلالهم، يقول تعالى محذرًا منهم ومنذرًا: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦-٩٩].

ومكر الله هو بأسه ونقمته وقدرته عليهم، فيستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويأخذهم في حال غفلتهم وسهوهم(٣)، ولا يأمن ذلك إلا أهل الغفلة أصحاب القلوب المريضة، قال الحسن البصري رحمه الله: "المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن"(٤).

---

(١) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي (ص١١٣).

(٢) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي (ص١١٤).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥١) تفسير السعدي (٢٩٨).

(٤) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٥١).

وقال أيضًا رحمه الله في مقارنة بين حال عباد الله المؤمنين وحال المنافقين، فذكر أن المؤمنين عملوا لله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم: "إن المؤمن جمع إيمانًا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنًا"(١).

وقال السعدي رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]: "وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنًا على ما معه من الإيمان"(٢).

بل لا يزال خائفًا وجلًا أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعيًا أن يثبت قلبه على دينه إلى أن يلقاه غير مغير ولا مبدل، دائمًا يلهج بالدعاء الذي كان يكثر منه النبي ﷺ، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟! قَالَ: «نَعَمْ؛ إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ». تجد المؤمن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن، فإن العبد –ولو بلغت به الحال ما بلغت– فليس على يقين من السلامة(٣).

ولذا يخاف المؤمن على قلبه من الزيغ، فهو دائم الدعاء بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وعَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ، أَنَّهُ قَالَ:" مَا عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ بَشَرٍ لَا يَخَافُ عَلَى إِيمَانِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَّا ذَهَبَ"(٤).

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٠٧)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز(٢/ ٥٤٥).

(٢) تفسير السعدي (٢٩٨).

(٣) ينظر: تفسير السعدي (٢٩٨).

(٤)صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي (ص١١٧).

وعَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: "لَمَّا ذُكِرَ أَنَّ النِّفَاقَ، يَغُولُ الْإِيمَانَ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَخْوَفَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ"(١).

وعن مُعَاوِيَةَ بْنَ قُرَّةَ، يَقُولُ: "أَنْ لَا يَكُونَ فِيَّ نِفَاقٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا كَانَ عُمَرُ ﷺ يَخْشَاهُ وَآمَنُهُ أَنَا؟"(٢).

ثانياً: الحسد.

ومن أمراض القلوب التي لها أثر كبير في عدم زكاة القلب: مرض الحسد، وإليك نبذة يسيرة عن ذلك:

أما الحسد المذموم: وهو تمني زوال النعمة عن المحسود، فله آثار على القلب مما يضعف زكاته أو يذهبها، وله صور منها:

أ- **الحسد على التدين بدين الإسلام، ويتمنى انحراف المسلمين عن دينهم، وهو من أشد أنواع الحسد**، ومنه حسد أهل الكتاب، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وهذا النوع من داء الحسد على تدين المسلم يصيب بعض من يتظاهر بالإسلام كالمنافقين ومن يسير على دربهم، لأن دأبهم الذين يسيرون عليه يريدون ظهور الكفر ووقوع المسلمين فيه، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن

---

(١) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي (ص١١٩).

(٢)صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي (ص١٢٠).

تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾[النساء: ٨٨ – ٨٩].

ب- الحسد على العلم والنبوغ فيه، وكثرة الطلبة، والشهرة، وهذا النوع من الحسد أشد ما يكون بين الأقران والمتعاصرين، وهذا الحسد موجود في طبيعة البشر، ولذا ينبغي على المسلم أن يجاهد نفسه، فلا يظهره ولا يبديه، ويستعيذ بالله منه إذا أحس به [(١)]:

- قال شيخ الإسلام رحمه الله: "الحسد مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا القليل من الناس؛ ولهذا يقال ما خلا جسد من حسد، لكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه.
- وقد قيل للحسن البصري أيحسد المؤمن؟ فقال ما أنساك أخوة يوسف لا أبا لك[(٢)]، ولكن عمه في صدرك فإنه لا يضرك ما لم تعد به يداً ولساناً، فمن وجد في نفسه حسداً لغيره، فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر فيكره ذلك من نفسه"[(٣)].
- وقال ابن رجب رحمه الله: "والحسد مركوز في طباع البشر، وهو أن الإنسان يكره أن يفوقه أحد من جنسه في شيء من الفضائل، ثم ينقسم الناس بعد هذا إلى أقسام، فمنهم من يسعى في زوال نعمة المحسود بالبغي عليه بالقول والفعل، ثم منهم من يسعى في نقل ذلك إلى نفسه، ومنهم من يسعى في إزالته عن المحسود فقط من غير نقل إلى نفسه، وهو شرهما وأخبثهما، وهذا هو الحسد المذموم المنهي عنه"[(٤)].

ج- الحسد على أمور الدنيا من مال ومنزل وولد ونحو ذلك بتمني زوالها.

قال ﷺ عن خطر الحسد على الأمة: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ، هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا

---

(١) ينظر: مقالة بعنوان: أسباب كلام الأقران بعضهم في بعض(١) على موقع الألوكة على الشبكة.

(٢) نقله ابن عبد البر عن الحسن في التمهيد(٦/ ١٢٦).

(٣) أمراض القلوب وشفاؤها (٢١).

(٤) جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (٢/ ٢٦٠).

تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَلِكَ لَكُمْ؟! أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»[1].

ثالثاً: الشحناء والبغضاء.

معناها: العداوة والكره والتباغض في القلوب[2].

ويكفي دلالة على خطرها الأحاديث الآتية:

قال ﷺ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ، هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَلِكَ لَكُمْ؟! أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ».

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا »[3].

والشحناء والبغضاء من أمراض القلوب التي تفسدها وتذهب زكاتها، ولها آثار خطيرة على الفرد والمجتمع، ومنها:

- قطيعة الأرحام.

فإذا دبت الشحناء والبغضاء في القلب أثمرت ثمرة مرة وهي قطيعة الرحم، والتي قال تعالى عنها: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٢٩) ح (١٤١٢)، والترمذي واللفظ له (٤/ ٦٦٤) ح (٢٥١٠) وذكر أن الحديث مختلف فيه، وجوّد إسناده كل من المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٨٥) ح (٤٠٨٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٣٠) ح (١٢٧٣٢)، وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٢٣) ح (٢٦٩٥).

(٢) ينظر: الصحاح(٥/ ٢١٤٣)، مقاييس اللغة (٣/ ٢٥٢)، لسان العرب (٧/ ١٢١).

(٣) أخرجه مسلم (٨/ ١١)ح(٢٥٦٥).

أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ قَالَ: نَعَمْ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ قَالَتْ: بَلَى قَالَ: فَذَاكِ لَكِ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾"[1].

وعَنِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ»[2].

---

(١)أخرجه البخاري (٩/ ١٤٥)ح(٧٥٠٢)، ومسلم واللفظ له (٨/ ٧)ح(٢٥٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٥)ح(٥٩٨٤)، ومسلم واللفظ له (٨/ ٨)ح(٢٥٥٦).

- **السعي بالنميمة بين الناس.**

ومن آثار الشحناء والبغضاء وجود من يسعى بالنميمة بين الناس، "وهي نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد"[(١)].

ويكفي في بيان خطرها العظيم ما قاله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ»[(٢)].

وسيأتي مزيد بيان لها.

- **الوقوع في الغيبة.**

ومما تثمره الشحناء والبغضاء وقوع العبد في الغيبة التي فسرها النبي ﷺ بقوله:« أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[(٣)].

وقد ذمها الله في كتابه بذم عظيم تنفر منه النفوس وتكرهه كرهاً عظيماً، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾ [الحجرات: ١٢].

وسيأتي مزيد بيان لها.

---

(١) ذكر هذا المعنى النووي في رياض الصالحين، ط الرسالة(٤٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ١٧)ح(٦٠٥٦)، ومسلم واللفظ له (١/ ٧١)ح(١٠٥).

(٣) أخرجه مسلم (٨/ ٢١)ح(٢٥٨٩).

- **التهاجر بين المسلمين أكثر من ثلاثة أيام.**

ومن أعظم أسباب التهاجر بين المسلمين فوق ثلاثة أيام- بدون سبب شرعي- وجود الشحناء والبغضاء في القلب، فهي التي تحرك صاحبها إلى ذلك، فيقع بسببها في ما يعرضه لسخط الله وعقوبته، يقول ﷺ: "لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيَصُدُّ هَذَا وَيَصُدُّ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ"(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا »(٢).

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ»(٣).

---

(١)أخرجه البخاري (٨/ ٥٣)ح(٦٢٣٧)، ومسلم (٨/ ٩)ح(٢٥٦٠).

(٢) أخرجه مسلم (٨/ ١١)ح(٢٥٦٥).

(٣)أخرجه أحمد (١٥/ ٤٥ ط الرسالة)ح(٩٠٩٢)، وأبو داود (٤/ ٢٧٩ ت محيي الدين عبد الحميد)ح(٤٩١٤)، وقال النووي في رياض الصالحين – ت الرسالة الثاني (ص٤٥٢): «رواه أبو داود بإسناد على شرط البخاري ومسلم»، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٥٠)ح(٢٧٥٧).

- **السب والشتم، ومن ذلك اللعن.**

ومن الثمرات المرة للشحناء والبغضاء وقوع العبد في السب والشتم وكثرة اللعن، وكل ذلك يسبب إفلاس العبد من حسانته يوم القيامة، ووقوعه في أسباب غضب الله وسخطه، قَالَ ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[1].

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ المُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الفَاحِشِ وَلَا البَذِيءِ»[2].

وقد حذر الله من أذية المؤمنين بغير ما اكتسبوا، ويدخل فيه سبهم وشتمهم، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المِنْبَرَ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا المسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ المسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٧)ح(٢٥٨١).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٩٠ ط الرسالة)ح(٣٨٣٩)، والترمذي واللفظ له (٤/ ٣٥٠)ح(١٩٧٧)، والحاكم (١/ ٥٧)ح(٢٩) وصححه وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص١٣٠)ح(٣١٢)، وصححه محقق مسند أحمد (٦/ ٣٩١ ط الرسالة)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه لمسند أحمد (٤/ ٥٥ ت أحمد شاكر)ح(٣٨٣٩).

يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ» قَالَ: وَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى البَيْتِ أَوْ إِلَى الكَعْبَةِ فَقَالَ: «مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْكِ»[1].

وقال قتادة رحمه الله: «فإياكم وأذى المؤمن، فإن الله يحوطه، ويغضب له»[2].

وقال الحسن رحمه الله: «إيّاكم وأذى المؤمن فإنّه حبيب ربّه، أحبّ الله فأحبّه، وغضب لربّه فغضب الله له، وإنّ الله يحوطه ويؤذي من آذاه»[3].

وسيأتي مزيد بيان لذلك.

---

(١)أخرجه الترمذي (٤/ ٣٧٨)ح(٢٠٣٢)، وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٣٤٤):" سنده صحيح"، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٥٨٨)ح(٢٣٣٩):"حسن صحيح".

(٢) نقله عنه في تفسير الطبري (١٩/ ١٨٠).

(٣) نقله عن الحسن في تفسير الثعلبي (٨/ ٦٣).

رابعاً: تعلق القلب بالدنيا، والغفلة عن الاخرة.

ومن أمراض القلوب المفسدة له المذهبة لزكاته تعلقه بالدنيا التي تؤدي إلى غفلته عن الآخرة، ولهذا جاء التحذير في كتاب الله من الاغترار بالحياة الدنيا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وتلاحظ أن الله تعالى حذر في الآيتين من الاغترار بالدنيا والشيطان لخطرهما العظيم على إفساد القلب وفتنته عن الآخرة مما يؤدي إلى غفلته العظيمة ونسيان الآخرة.

وبقدر تعلق القلب بالدنيا وافتتانه بها وبتقصيره في تطهير قلبه من دواخل السوء، تحصل له الغفلة عن الآخرة، حيث يقول الله تعالى عن حال الغافلين عن الآخرة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[الروم: ٧].

قال البغوي رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾: "يعني: أمر معاشهم، كيف يكتسبون ويتجرون، ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون، وكيف يبنون ويعيشون، قال الحسن: إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطئ، وهو لا يحسن يصلي، ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ ساهون عنها جاهلون بها، لا يتفكرون فيها ولا يعملون لها"(١).

وذكر السعدي في معنى هذه الآية كلامًا نفيسًا، فقال رحمه الله: "وهؤلاء الذين لا يعلمون أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾،

---

(١) تفسير البغوي (٦/ ٢٦٢) ونقل كلام الحسن فيه.

فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئًا، فهم واقفون مع الأسباب غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها.

﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب.

وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزًا عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رآهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يتردَّدون، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ثم نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها

وما حرموا من العقل العالي، فعرفوا أن الأمر لله، والحكم له في عباده، وإن هو إلا توفيقه وخذلانه، فخافوا ربهم، وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان حتى يصلوا إليه، ويحلوا بساحته، وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه؛ لأثمرت الرقي العالي والحياة الطيبة، ولكنها لما بني كثير منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير"[1].

---

(١) تفسير السعدي (٦٣٧).

وقد حذر النبي ﷺ أمته من الاغترار بالدنيا، فقال ﷺ: «فَوَاللهِ، مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[1]، وفي رواية للبخاري: «وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُم»[2].

وقال ﷺ لأصحابه ليبين لهم أثر التعلق بالدنيا: « إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللهُ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، تَتَنَافَسُونَ ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٨٤) ح (٤٠١٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٣) ح (٢٩٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٩٠) ح (٦٤٢٥).

(٣) أخرجه مسلم (٨/ ٢١٢)ح(٢٩٦٢).

المطلب الرابع: إتباع الهوى والوقوع في فتنة الشهوات والشبهات، وفيه مسألتان.

المسألة الأولى: اتباع الهوى:

ومما يعوق القلب عن زكاته وسلامته ويؤدي إلى حصول الزيغ فيه، وقوعه في اتباع الهوى، فيعاقبه الله بزيغ قلبه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥]

وقال ابن كثير رحمه الله: "وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]"(١).

ويقول السعدي رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾: "وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده ليس ظلمًا منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه، وتقليب القلوب عقوبة لهم وعدلًا منه بهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]"(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ١٠٩).

(٢) تفسير السعدي (٨٥٨).

إن خطر اتباع الهوى في كونه يؤدي بصاحبه لاتخاذه إلهًا يعبده، فيصرفه كيف يشاء، ويظن أنه على الهدى وهو يعبد الهوى، وزين له الشيطان ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى في بيان ذلك: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [ص: ٢٦].

وخطورة اتباع الأهواء تكمن في أن من يقع فيها يسير في طريق الضلالة، وهو يظن أنه على الحق؛ لأن الهوى يعميه عن الحق، ويصم أذنه عن سماعه.

المسألة الثانية: الوقوع في فتن الشبهات والشهوات.

معنى الشهوات والشبهات:

١- **الشبهات:** جمع شبهة، ولها في اللغة معان منها: التماثل والالتباس، والأمور المشتبهات المشْكِلات[(١)].

والشبهة في الاصطلاح: ما التبس أمره بين الحلال والحرام، والحق والباطل[(٢)].

٢- **الشهوات:** جمع شهوة وهي في اللغة والاصطلاح بمعنى واحد: نزوع النفس إلى ما تريده، فتحبه وترغب فيه بشدة، كشهوة الطعام والمال، وشهوة الرجل للمرأة والعكس، ونحو ذلك[(٣)].

---

(١) ينظر: الصحاح (٦/ ٢٢٣٦)، لسان العرب (١٣/ ٥٠٣)، المعجم الوسيط (١/ ٤٧١).

(٢) ينظر: شرح النووي على مسلم (٢٧/١١)، جامع العلوم والحكم (١٩٩/١)، المعجم الوسيط (٤٧١/١).

(٣) ينظر: المفردات (٤٦٨)، لسان العرب (١٤/ ٤٤٥)، المعجم الوسيط (١/ ٤٩٨).

أولاً: فتنة الشبهات:

وفتنة الشبهات من أخطر الفتن على القلوب، ومن أعظم ما يعيق القلب من زكاته، والمتبع لهواه يسقط في هذه الفتنة لأسباب، منها:

١- بسبب اتباع المتشابه، وذلك ناتج عن زيغ القلب الذي يجعله يبحث عن المتشابه ليوظفه لصالحه في نشر الفتنة التي وقع فيها وزينها له الشيطان، وقد بين الله في كتابه أن القرآن منه محكم وهو أكثره، ومنه متشابه، فتجد أهل الهوى الذين زاغت قلوبهم بسبب ضلالهم يتبعون هذا المتشابه ويتركون المحكم، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ﴾ الآية [آل عمران: ٧].

قال السعدي رحمه الله: "وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني البين الذي لا يشتبه بغيره، ومنه آيات متشابهات، تحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردها، حتى تضم إلى المحكم.

فالذين في قلوبهم مرض وزيغ وانحراف -لسوء قصدهم- يتبعون المتشابه منه، فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة وآرائهم الزائفة، طلبًا للفتنة، وتحريفًا لكتابه، وتأويلًا له على مشاربهم ومذاهبهم لِيَضِلوا ويُضِلوا"[(١)]. ثم أتم كلامه بعد ذلك في تفسير تكملة الآية والتي تليها عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧، ٨]، فقال

(١) تفسير السعدي (٩٦٢).

رحمه الله[1]: "وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف، فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأن كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف.

فلعلمهم أن المحكمات معناها في غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه، الذي تحصل فيه الحيرة لناقص العلم وناقص المعرفة، فيردون المتشابه إلى المحكم، فيعود كله محكمًا، ويقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ للأمور النافعة، والعلوم الصائبة، ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أهل العقول الرزينة، ففي هذا دليل على أن هذا من علامة أولي الألباب، وأن اتباع المتشابه من أوصاف أهل الآراء السقيمة والعقول الواهية والقصود السيئة.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور، وما تنتهي وتؤول إليه، تعين الوقوف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل معنى التفسير ومعرفة معنى الكلام كان العطف أولى، فيكون هذا مدحًا للراسخين في العلم أنهم يعلمون كيف ينزلون نصوص الكتاب والسنة، محكمها ومتشابهها، ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين، دعوا الله تعالى أن يثبتهم على الإيمان، فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ أي: لا تملها عن الحق إلى الباطل، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تصلح بها أحوالنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ أي: كثير الفضل والهبات، وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراسخين أنهم يسألونه أن لا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم"[2].

٢- ومن أسباب الوقوع في الشبهات ما يحصل من مرض للقلب بسبب كسب العبد،

---

(١) أي: السعدي.

(٢) تفسير السعدي (٩٦٢).

فقد أخبر سبحانه عن الأسباب التي بها تزيغ قلوب أهل الأهواء الذين اتبعوا المتشابه ابتغاء الفتنة ورغبة في تأوله على غير مراد الله تعالى، وذلك ناتج عن كسبهم وسعيهم في الضلال والإضلال، فيعاقبهم الله بعدم عصمتهم من فتنة الشبهات، فيقعوا فيها، وما ظلمهم الله لكنهم ظلموا أنفسهم، كما قال الله عنهم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾[الصف: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾[التوبة: ١٢٧]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾[الأنعام: ١١٠]، فالعبد إذا تولى عن ربه، وأعرض عن الحق، ووالى أعداءه، ورأى الباطل فاختاره، وكره الحق واتباعه، فإن الله يوله ما تولى، ويزيغ قلبه عقوبة له على ما حصل منه من زيغ وانحراف، وما ظلمه الله، ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأمّارة بالسوء(١).

وعلى هذا فلا بد للمسلم من الإكثار من هذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾، وما يماثله من أدعية طلب الثبات على الحق، كما في حديث أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟! قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»(٢)، فإن القلوب لا يثبتها على الدين إلا الله تعالى.

ثانياً: فتنة الشهوات:

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (٩٦٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٩/ ١٦٠) ح(١٢١٠٧)، والترمذي (٤/ ٤٤٨) ح(٢١٤٠) وقال الترمذي: "هذا حديث حسن"، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٠) ح(٣٨٣٤)، حكم الألباني بصحته في مشكاة المصابيح(١/٣٧) ح(١٠٢)، ، قال محقق المسند (١٩/ ١٦٠):"إسناده قوي على شرط مسلم".

وأما فتنة الشهوات فتكمن خطورتها في أنها مزينة تميل إليها القلوب، وتقبل عليها، وينشغل بها المسلم عن إصلاح قلبه ولها أمثله من أعظمها فتنة المال والنساء، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤]، وكم سقط صرعى من الناس أمام هذه الشهوات المزينة، فاجتالتهم الدنيا بزخارفها وزينتها، وتسلط عليهم الشيطان، فأبعدهم عن الله، وقعدت بهم شهواتهم، وتنكبوا الطريق الحق، وفتنوا بالدنيا، وقد وصف الله حال من صرعته الدنيا، فترك الانتفاع بآيات الكتاب، ومال إلى الشهوات، وأخلد إلى الأرض وزينتها، فخسر خسرانًا مبينًا، فقال تعالى عنه وعمّن يشبهه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

قال السعدي رحمه الله في فوائد الآيات: "وفي هذه الآيات: الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه، وفيه أن اتباع الهوى وإخلاد العبد إلى الشهوات يكون سببًا للخذلان"(١).

(١) تفسير السعدي (٣٠٩).

ومن أعظم الشهوات المانعة من زكاة القلب أكل المال الحرام أو ما يوصل إليه من المشتبهات، وقد سبق الكلام على أثر المال الحلال الطيب على زكاة القلب[1].

(١) ينظر: ص(١٢٣).

المطلب الخامس: مجالسة أهل السوء.

من العوائق التي تفسد القلب وتمنع عنه زكاته، مجالسة أهل السوء سواء كانت مجالسة مباشرة عن طريق حضور مجالسهم بدون واسطة، أو غير مباشرة وهي الغالب على المجالسة اليوم، وهذه المجالسة في زمننا لا يلزم منها حضور مجالسهم أو قراءة كتبهم؛ لأن مفهوم المجالسة تغير في زمننا بسبب ما يسمى بوسائل التواصل الاجتماعي، ومتابعة نتاجهم الفكري الموجود على شبكة الإنترنت، أو المتابعة التي تتم من خلال البث الفضائي.

وجاءت النصوص بالتحذير من مجالسة السوء لخطرهم العظيم على من يجالسهم، ومن ذلك:

عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ "(٢).

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١١-١١٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٦٣)ح(٢١٠١)، ومسلم واللفظ له(٨/ ٣٧)ح(٢٦٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٤/ ١٤٢ ط الرسالة)ح(٨٤١٧)، وأبو داود (٤/ ٢٥٩ ت محيي الدين عبد الحميد)ح(٤٨٣٣)، والترمذي (٤/ ٥٨٩)ح(٢٣٧٨) وقال: "حسن غريب"، والحاكم(٤/ ١٨٩)ح(٧٣٢٠) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٥٩٧)ح(٩٢٧)، وجود إسناده محقق المسند الأرناؤوط، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه لمسند أحمد (٨/ ١٣٠ ت أحمد شاكر)ح(٨٠١٥).

وقَالَ ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ»[1].

وذكر العلماء رحمهم الله[2] آثارًا عن السلف في التحذير من مجالسة أهل الأهواء لخطورتها على القلوب، ومن ذلك: "قال أبو قلابة رحمه الله: لا تجالسوا أهل الأهواء -أو قال: أصحاب الخصومات-؛ فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون.

ودخل رجلان من أصحاب الأهواء على مُحَمَّد بن سيرين، فقالا: يا أبا بكر، نحدثك بحديث؟ قال: لا، قالا: فنقرأ عليك آية؟ قال: لا، لتقومان عني، أو لأقومنَّهْ، فقاما. فقال بعض القوم: يا أبا بكر، وما عليك أن يقرأ عليك آية؟!... وقال: خشيت أن يقرآ آية فيحرفانها، فيقر ذلك في قلبي.

وقال رجل من أهل البدع لأيوب: يا أبا بكر، أسألك عن كلمة؟ فولى، وهو يقول بيده: لا، ولا نصف كلمة.

قال رجل لابن سيرين: "إن فلانًا يريد أن يأتيك، ولا يتكلم بشيء، قال: قل لفلان: لا، ما يأتيني، فإن قلب ابن آدم ضعيف، وإني أخاف أن أسمع منه كلمة، فلا يرجع قلبي إلى ما كان"[3].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٨٩) ح (١٤٣)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٢٨١)، ح (٨٠)، وقال في مجمع الزوائد (١/ ١٨٧) ح (٨٨٦): "رواه البزار وأحمد وأبو يعلى، ورجاله موثقون"، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ١٠٧) ح (٢٣٩)، وقال محقق مسند أحمد (١/ ٢٨٩): "سنده قوي".

(٢) ينظر: الشريعة(١/٤٣٥-٤٤٠)، الإبانة الكبرى(٥/٢٥٤٤-٢٥٤٦)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة(١/ ١٠١، ١٥٠- ١٥١).

(٣) الإبانة الكبرى (٢/ ٤٤٦).

ويروي الآجري بسنده عن مهدي بن ميمون قال: "سمعت محمدًا -يعني ابن سيرين- وماراه[1] رجل في شيء، فقال مُحَمَّد: إني أعلم ما تريد، وأنا أعلم بالمراء منك، ولكني لا أماريك"[2].

وانظر إلى هذا الإمام العظيم من أكابر أهل السنة علماً وعملاً، ومع هذا العلم العظيم والقدرة على المجادلة خاف على قلبه من أن تنفذ إليه شبهة فلا يعود كما كان، وتذهب رقته وخشوعه وتلذذه بالعبادة بسبب سماع كلام أهل الباطل، فإنه يمرض القلوب ولو كانت صحيحة، ويفسدها ولو كانت سليمة فالحذر الحذر فإن سماع أو رؤية أهل الباطل تعد عقوبة عند أهل القلوب الحية، فقد دعت أم جريج الراهب على ابنها -لما انشغل بصلاة النافلة عنها- بأن يعاقبه الله برؤية وجوه العصاة من المومسات أي الزانيات، وقد عاقبه الله بذلك[3] لأن رؤية الوجوه المظلمة يسري أثرها على القلب بشيء من الغبش في رؤية الحق، فمن سرح

---

(١) أي جادله.

(٢) الشريعة للآجري (١/ ٤٥٣).

(٣) والشاهد من الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ -وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي؛ فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ. فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ. فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي. فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ. فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَقَالَتِ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ. قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاءُوا بِهِ فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ. فَصَلَّى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ الرَّاعِي. قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: لَا أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ، كَمَا كَانَتْ. فَفَعَلُوا.." الحديث أخرجه البخاري مختصراً(٢/ ٦٣)ح(١٢٠٦)، ومسلم واللفظ له (٨/ ٤)ح(٢٥٥٠).

طرفه في تلك الوجوه وسمع لكلامها أصابت بقدر القرب ظلمة في قلبه ينعكس أثرها على نفوره من القرآن وأصحابه، وتؤثر كذلك على صفاء القلب ويمنع من زكاته، فتصيبه الكدورة التي تضعف فهمه للقرآن ويعجز عن تدبره، ويضيق الصدر بتلاوته، فلا يجد لذة في تدبره وفهمه، ولا ينتفع بمواعظه وزواجره ووعده ووعيده، وقد يصل الحال بقلبه أن يتلذذ بالشهوة الحرام من سماع المعازف ما لا يجده عند تلاوته أو سماعه، نسأل الله العافية والسلامة.

وقد سبق الكلام عن هذا.

المطلب السادس: ذنوب الخلوات.

للذنوب أثر عظيم على فساد القلب والبعد عن أسباب زكاته، فيعمى القلب فلا يرى حقائق الأمور كما هي بل تنطمس بصيرته، فيعمى، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ويأتي بسبب الذنوب غلاف على القلب يسمى الران الذي ذكرته الآية، وكما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطفّفين: ١٤]»، ومن أشد الذنوب خطراً على القلب ذنوب الخلوات، فهي تفسد القلب وتهلك العمل الصالح في يوم القيامة، حتى يكون صاحبها من المفلسين، ودونك هذا الحديث العظيم الذي يبين خطورة الذنوب في حالة الخلوة مع الله وعدم الحياء منه، فقال ﷺ: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا»، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا؛ أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا»[(١)].

وبناء على هذا فإن القلوب التي أصيبت بمثل هذا الداء لا تنتفع بالقرآن وهي بمنأى عن التأثر به، وقد حيل بينها وبين تدبره والانتفاع به، فهي قلوب قاسية وقد ضربت الغفلة في

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤١٨) ح (٤٢٤٥)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ١٧٠) ح (٣٥٣٤): "رواه ابن ماجه ورواته ثقات"، وقال البوصيري في زوائد ابن ماجه (٤/ ٢٤٦) ح (١٥٢٥): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٥٩١) ح (٢٣٤٦)، وحسن إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لسنن ابن ماجه (٥/ ٣١٧) ح (٤٢٤٥).

أنحائها وأجلب عليها الشيطان بخيله ورجله، فانتهكت محارم في حال خلوتها وغفلت عن علم الله بها وسماعه ورؤيته لها، فأطلقت لنفسها العنان في الشهوات المحرمة، فعند ذلك يفسد القلب ولا يستطيع صاحبه أن يزكيه إلا إذا تاب إلى ربه وأقلع عن ذنوب الخلوات، وهذا مثال على ذنوب الخلوات، فإذا خلى أحدهم بشاشة جهازه نظر حين لا يراه رقيب البشر، نظر إلى ما حرم الله مما يعرضه جهاز جواله أو حاسبوه أو القناة الفضائية متع ناظريه وسمع بأذنيه الحرام، ولو كان أحد من البشر يراقبه لما فعل ذلك خوفاً وحياء منهم، نسأل الله العافية والسلامة.

المطلب السابع: آفات اللسان والسمع والنظر.

ومن عوائق تزكية القلب وقوع صاحبه في آفات اللسان والسمع والنظر، فإنها تمرض القلب وتفسده، وتمنع من أسباب زكاته وسلامته.

وينتظم هذا المطلب في تمهيد وعدة مسائل.

التمهيد: خطر الكلمة، وهذه الجوارح على الإنسان.

ودل على خطر آفات اللسان الكثير من الأدلة، منها:

قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

قال ابن كثير في تفسير الآية: « ﴿مَّا يَلْفِظُ ﴾ أي: ابن آدم ﴿مِن قَوْلٍ﴾ أي: ما يتكلم بكلمة ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام. وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، على قولين، وظاهر الآية الأول لعموم قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾»[(١)].

وقال ﷺ : "..وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ" الحديث[(٢)].

---

(١) تفسير ابن كثير – ط ابن الجوزي (٧/ ١١).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ١٠١)ح(٦٤٧٨).

وقال ﷺ : ".. وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ بِهَا سُخْطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ" الحديث(١).

و قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ، لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا، فَيَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا»(٢).

وتأمل حفظك الله ورعاك في هذا الحديث الذي يزلزل القلوب، كلمة من سخط الله لا يرى بها بأساً ولا يلتفت إلى خطرها وعظيم ضررها عليه ربما يقولها مزحة لا يشعر بها ولا يدري أنها تهلكه هلكة عظيمة يسقط بها في النار على رأسه سبعين سنة نسأل الله العافية والسلامة.

وهذا مثال على خطورة الكلمة على صاحبها، فقد تكون سبباً لخسارته في الدنيا والآخرة، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥/ ١٨٠) ح(١٥٨٥٢)، والترمذي(٤/ ٥٥٩)ح(٢٣١٩) وقال:"حسن صحيح، وابن ماجه (٢/ ١٣١٢)ح(٣٩٦٩)، والحاكم (١/ ١٠٦)ح(١٣٦) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة(٢/ ٥٤٩)ح(٨٨٨)، وقال محقق المسند ح(١٥٨٥٢):"صحيح لغيره".

(٢) أخرجه أحمد (١٣/ ٣٣٩) ح(٧٩٥٨)، والترمذي (٤/ ٥٥٧)ح(٢٣١٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٣)ح(٣٩٧٠)، وابن حبان (١٣/ ١٣)ح (٥٧٠٦)، الحاكم (٤/ ٦٤٠)ح (٨٧٦٩) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١/ ٣٣٤) ح(١٦١٨)، وقال محقق المسند ح(٧٩٥٨):"حديث صحيح".

مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ "، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»(١).

وفي لفظ عند مسلم عَنْ جُنْدُبٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَ « أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ أَوْ كَمَا قَالَ»(٢).

ومما يدل على خطر هذه الجوارح، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال تعالى عن الغافلين عن أن هذه الجوارح ستشهد عليهم يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍۚ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾[فصلت: ١٩-٢٤].

ودونك مجموعة من الآفات المتعلقة باللسان والسمع والبصر، التي لها خطر عظيم على القلب.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤/ ٤٦ ط الرسالة)ح(٨٢٩٢)،وأبو داود (٤/ ٢٧٥ ت محيي الدين عبد الحميد)ح(٤٩٠١) وصححه الألباني في تخريجه لسنن أبي داود.

(٢) صحيح مسلم (٨/ ٣٦ ط التركية)ح(٢٦٢١).

المسألة الأولى: الغيبة وتتبع العورات.

ذكر الله في صورة كافية من النفور منها والبعد عنها، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال ابن جرير رحمه الله: "وقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾. يقول تعالى ذكره للمؤمنين به: أيحب أحدكم أيها القوم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته ميتا، فإن لم تحبوا ذلك وكرهتموه لأن الله حرم ذلك عليكم، فكذلك لا تحبوا أن تغتابوه في حياته، فاكرهوا غيبته حياً كما كرهتم أكل لحمه ميتاً؛ فإن الله حرم غيبته حيا كما حرم أكل لحمه ميتاً"(١).

عن قتادة رحمه الله قال عند قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾، يقول: "كما أنت كاره لو وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها، فكذلك فاكره غيبته وهو حي"(٢).

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا من رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة كقوله ﷺ، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: "ائذنوا له بئس أخو العشيرة! " وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس، وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: "أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه". وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت كما قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٣٨٠-٣٨١).

(٢) نقله عنه ابن جرير في تفسيره(٢١/ ٣٨١).

أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: كما تكرهون هذا طبعًا فاكرهوه ذاك شرعًا، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها كما قال ﷺ في العائد في هبته: "كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه" وقد قال: "ليس لنا مثل السوء" وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة الوداع: "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا".."[1].

ثم ذكر رحمه الله الأدلة على ذلك.

وقد عرف النبي ﷺ الغيبة حتى لا يلتبس أمرها على أحد، فقَالَﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[2].

إذا كان المسلم يذكر إخوانه في مجالسه -في حال غيبتهم- بما هو فيهم من العيب والخلل، فهو في الحقيقة ممن يأكلون لحوم الموتى، وهو يشعر أو لا يشعر، ومهما زين له الشيطان عمله ذلك فأخرجه في قالب التحذير من المنكرات، والحرص على سلامة الأمة منها، والتحذير من دعاة السوء، ونحو ذلك من لبس الحق بالباطل ليروج على الأتباع، وهو في الحقيقة ممن وقع في الغيبة وأكل لحوم إخوانه، وجر على نفسه شرًّا، وهم يحسب أنه يحسن صنعًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ الآية [فاطر: ٨].

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، -قَالَ غَيْرُ

---

(١) تفسير ابن كثير - ط ابن الجوزي (٦/ ٧١٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠١) ح (٢٥٨٩).

مُسَدَّدٍ: تَعْنِي قَصِيرَةً-، فَقَالَ: «لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ» الحديث[1].

قال النووي رحمه الله: "أي: خالطته مخالطة يتغيرُ بها طعمُه أو ريحُه لشدّة نتنها وقبحها. وهذا الحديث من أعظم الزواجر عن الغيبة أو أعظمها، وما أعلم شيئًا من الأحاديث يبلغُ في الذمّ لها هذا المبلغ"[2].

وفي عون المعبود: "أي: لو خلط (بها) أي تفسير ابن كثير - ط ابن الجوزي (٦/ ٧١٧).

: على فرض تجسيدها وتقدير كونها مائعًا (البحر) أي: ماؤه (لمزجته) أي: غلبته وغيرته وأفسدته"[3].

وهذا يدل على عظم خطر الغيبة، وإذا كان مجرد الإشارة عن صفية بقصرها عدّها النبي ﷺ كلمة عظيمة، لو قدر مزج ماء البحر بها لغيرته على عظم البحر واتساعه، وصعوبة تغيره لشدة ملوحته، فكيف بما هو أشد من الإشارة؟!

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»[4].

---

(١) أخرجه أبو داود واللفظ له (٤/ ٢٦٩) ح (٤٨٧٥)، والترمذي (٤/ ٦٦٠) ح (٢٥٠٢) ح (٢٥٠٣) وقال: "حسن صحيح"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٧٧) ح (٢٨٣٤)، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لسنن أبي داود (٧/ ٢٣٧) ح (٤٨٧٥).

(٢) الأذكار (٣٣٨).

(٣) عون المعبود وحاشية ابن القيم (١٣/ ١٥١).

(٤) أخرجه أحمد (٢١/ ٥٣) ح (١٣٣٤٠)، أبو داود (٤/ ٢٦٩) ح (٤٨٧٨)، ومعجم الطبراني الأوسط (١/ ٧) ح (٨)، وصحح إسناده الضياء في المختارة (٦/ ٢٦٥) ح (٢٢٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٧٩) ح (٢٨٣٩)، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند (٢١/ ٥٣) ح (١٣٣٤٠).

وكفى بهذه العقوبة رادعًا وزاجرًا عن هذا الذنب العظيم، لو تخيل المغتاب هذه العقوبة لفر هاربًا هائمًا على وجهه من هذه الخطيئة، أي ألم حسي ونفسي يشعر به هؤلاء المغتابون وهم يجرحون بأظفار من نحاس قوية شديدة الأثر تنغرس في أشرف ما فيهم وجوههم، وإذا الدماء والصراخ والعويل، ثم ينزلون بأظفارهم إلى صدورهم، فيخمشونها ويجرحونها، ثم تستمر العقوبة لا تتوقف عنهم، ومعها الآلام والحسرات، في مشهد تنخلع منه القلوب؟!

وقال ﷺ في تحذير شديد لأمته من الوقوع في مثل هذه الآفات: " يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ"(١).

ودونك هذه الدرر من أقوال السلف في خطر تتبع العورات:

١- قال ابن حبان رحمه الله: "الواجب على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه، فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنه ولم يتعب قلبه، فكلما اطلع على عيب لنفسه هان عليه ما يرى مثله من أخيه، وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه، وتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه"(٢).

٢- وقال عون بن عبد الله رحمه الله: "ما أحسب أحدًا تفرغ لعيوب الناس إلا من غفلة

---

(١) أخرجه أحمد (٣٣/ ٢٠ ط الرسالة)(١٩٧٧٦)، وأبو داود (٤/ ٢٧٠ ت محيي الدين عبد الحميد)ح(٤٨٨٠)، أبو يعلى - ت السناري في مسنده(٣/ ١٩٧)ح(١٦٧٥)، والبيهقي في السنن الكبير (٢١/ ٢٢٤ ت التركي)ح(٢١٢٠٦)، وجود إسناده العراقي في تخريج أحاديث الإحياء = المغني عن حمل الأسفار (ص٦٦١)، وقال الألباني عنه في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٥٨٩)ح(٢٣٤٠) : "حسن صحيح"، وقال عنه محقق مسند أحمد (٣٣/ ٢٠ ط الرسالة) :«صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن»، وصححه محقق مسند أبي يعلى - ت السناري (٣/ ١٩٧).

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (١٢٥).

غفلها عن نفسه"[١].

٣- ويقول الحسن البصري رحمه الله: "ابن آدم، إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا"[٢].

٤- مما أثر عن السلف قولهم: "أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم، ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن أعراض الناس"[٣].

٥- ويقول الفضيل رحمه الله: "يكون شغلك في نفسك، ولا يكون شغلك في غيرك، فمن كان شغله في غيره فقد مُكِرَ بهِ"[٤].

٦- وقال السري السقطي رحمه الله: "ومن علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس"[٥].

٧- وقال بكر بن عبد الله المزني: "إذا رأيتم الرجل موكلًا بعيوب الناس ناسيًا لعيبه، فاعلموا أنه قد مُكِرَ به"[٦].

٨- وعن مُحَمَّد بن سيرين رحمه الله قال: "التقي عن الخطائين مشغول، وإن أكثر الناس خطايا أكثرهم ذكرًا لخطايا الناس"[٧].

٩- ويقول الحسن رحمه الله: "والله للغيبة أسرع في دين المؤمن من الآكلة[٨] في جسده"[١].

---

(١) الصمت (١٣٢).

(٢) الصمت (١٣١).

(٣) ذكره ابن أبي الدنيا في الصمت (١٣٠) عن: خصاف، وخصيف، وعبد الكريم بن مالك رحمهم الله.

(٤) حلية الأولياء (٨/ ١٠٢).

(٥) حلية الأولياء (١٠/ ١٢٤).

(٦) صفة الصفوة (٢/ ١٤٧).

(٧) المجالسة وجواهر العلم (٥/ ١٦٦) لأبي بكر الدينوري.

(٨) داء يصيب أعضاء الإنسان فيأكلها حتى يتساقط لحمها ويقال له: الجذام.

ينظر: المطلع على ألفاظ المقنع (٣٩٤)، المعجم الوسيط (١/ ١١٣) معجم لغة الفقهاء (١٦١).

١٠- ويقول ابن القيم رحمه الله: "فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وويل لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس، هذا من علامة الشقاوة"[٢].

المسألة الثانية: النميمة.

أولاً: التعريف: عرفها العلماء بأنها نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد، بقصد التفريق بينهم وإلقاء العداوة[٣].

ثانياً: حكم النميمة والأدلة عليها.

محرمة بإجماع المسلمين، وقد دل على ذلك صريح الكتاب والسنة وإجماع الأمة[٤].

قال تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١].

قال ابن جرير رحمه الله: «وقوله: ﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾، يقول: مشاء بحديث الناس بعضهم في بعض، ينقل حديث بعضهم إلى بعض»[٥].

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «قوله عز وجل: ﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وهو نقل الكلام السيء من بعضهم إلى بعض ليفسد بينهم»[٦].

وقال ابن كثير رحمه الله: « ﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ يعني: الذي يمشي بين الناس ويحرش بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين، وهي: الحالقة»[٧].

---

(١) الصمت (١٢٩).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٩٨).

(٣) ينظر: رياض الصالحين - ت الرسالة الثاني (ص٤٣٤)، الأذكار للنووي ت مستو (ص٥٢٣)، شرح النووي على مسلم (٢/ ١١٢)، فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام ط المكتبة الإسلامية (٦/ ٤٠٢).

(٤) ينظر: الأذكار للنووي ت مستو (ص٥٢٣).

(٥) تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٩).

(٦) زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣٢١).

(٧)تفسير ابن كثير - ط ابن الجوزي (٧/ ٣٤٤).

وقال ﷺ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ"(١).

وقال ابن بطال رحمه الله: «والقتات: النمام عند أهل اللغة»(٢).

وجاء التصريح بلفظ النمام في رواية مسلم، فقال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ»(٣).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَعْضِ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا، فَقَالَ: يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرَةٍ، وَإِنَّهُ لَكَبِيرٌ؛ كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَكَانَ الْآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ فَكَسَرَهَا بِكِسْرَتَيْنِ أَوْ ثِنْتَيْنِ، فَجَعَلَ كِسْرَةً فِي قَبْرِ هَذَا، وَكِسْرَةً فِي قَبْرِ هَذَا، فَقَالَ: لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا»(٤).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّهُ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ فَقَالَ: إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ. ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً فَشَقَّهَا بِنِصْفَيْنِ، ثُمَّ غَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ صَنَعْتَ هَذَا؟ فَقَالَ: لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا»(٥).

وقال النووي رحمه الله: « وأما قوله ﷺ :"وما يعذبان في كبير"، فقد جاء في رواية البخاري "وما يعذبان في كبير وإنه لكبير كان أحدهما لا يستتر من البول" الحديث ذكره في كتاب الأدب في باب النميمة من الكبائر، وفي كتاب الوضوء من البخاري أيضا: "وما يعذبان في كبير بل إنه كبير"، فثبت بهاتين الزيادتين الصحيحتين أنه كبير فيجب تأويل قوله ﷺ: "وما يعذبان في كبير"، وقد ذكر العلماء فيه تأويلين:

أحدهما: أنه ليس بكبير في زعمهما.

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ١٧)ح(٦٠٥٦)، ومسلم (١/ ٧١)ح(١٠٥).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩/ ٢٤٩).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٧١)ح(١٠٥).

(٤) أخرجه البخاري (٨/ ١٧)ح(٦٠٥٥).

(٥) أخرجه البخاري (٢/ ٩٥)ح(١٣٦١)، ومسلم (١/ ١٦٦)ح(٢٩٢).

والثاني: أنه ليس بكبير تركه عليهما.

وحكى القاضي عياض رحمه الله تعالى تأويلاً ثالثاً: أي ليس بأكبر الكبائر.

قلت: فعلى هذا يكون المراد بهذا الزجر والتحذير لغيرهما أي لا يتوهم أحد أن التعذيب لا يكون إلا في أكبر الكبائر الموبقات فإنه يكون في غيرها والله أعلم، وسبب كونهما كبيرين أن عدم التنزه من البول يلزم منه بطلان الصلاة فتركه كبيرة بلا شك، والمشي بالنميمة والسعي بالفساد من أقبح القبائح لا سيما مع قوله ﷺ:"كان يمشي" بلفظ كان التي للحالة المستمرة غالباً، والله أعلم»[1].

عن يحيى بن أبي كثير رحمه الله قال: "يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر"[2].

وذلك لشره العظيم في الإفساد بين الناس، وإعانة الشيطان له في ذلك، والله أعلم.

ثالثاً: ماذا يفعل من أتاه نمام ينقل الكلام إليه؟

ونقل النووي عن الغزالي رحمة الله على الجميع: «وكل من حملت إليه نميمة وقيل له فلان يقول فيك أو يفعل فيك كذا، فعليه ستة أمور:

الأول: أن لا يصدقه لأن النمام فاسق.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح له فعله.

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى فإنه بغيض عند الله تعالى ويجب بغض من أبغضه الله تعالى.

الرابع: أن لا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: أن لا يحمله ما حكي له على التجسس والبحث عن ذلك.

السادس: أن لا يرضى لنفسه ما نهي النمام عنه فلا يحكي نميمته عنه، فيقول فلان حكى كذا فيصير به نماماً ويكون آتياً ما نهي عنه»[3].

---

(١) شرح النووي على مسلم (٣/ ٢٠١).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – ط السعادة (٣/ ٧٠).

(٣) ينظر: إحياء علوم الدين (٣/ ١٥٦)، شرح النووي على مسلم (٢/ ١١٣).

المسألة الثالثة: القذف.

أولاً: المعنى: الرمي بالزنا ونحوه.

أي يتهمه بالزنا أو اللواط ونحو ذلك[1].

ثانياً: حكمه والدليل عليه.

وهو محرم بإجماع الأمة، والأصل في تحريمه الكتاب والسنة[2]، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣-٢٥].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»[3].

وقال ﷺ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ» الحديث[4].

---

(١) ينظر: الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (٤/ ٢٥٩)، شرح المنتهى لابن النجار (١٠/ ٤٣٨)، الروض المربع بشرح زاد المستقنع – ط ركائز (٣/ ٣٩٣).

(٢) المغني لابن قدامة (١٢/ ٣٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٠)ح(٢٧٦٦)، ومسلم (١/ ٦٤)ح(٨٩).

(٤) أخرجه مسلم (٨/ ١١)ح(٢٥٦٤).

وقال ﷺ: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ وَهْوَ بَرِيءٌ مِمَّا قَالَ، جُلِدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ»[1].

المسألة الرابعة: بذاءة اللسان بالسب والشتم واللعن.

وقد سبق الكلام على ذلك، ونضيف هنا زيادة في الأدلة في بيان خطر ذلك، ودونك ما صح في ذلك من الأحاديث من كتاب صحيح الترغيب والترهيب[2].

قال رسولُ الله ﷺ: "سِبابُ المسْلمِ فُسوقٌ، وقِتالُه كُفْرٌ".

وقال ﷺ: "المسْتَبَّانِ شيْطانانِ يتَهاتَرانِ، ويتَكاذَبانِ".

وقال ﷺ: "وإن امْرؤٌ عيَّرَكَ بشَيْءٍ يَعْلَمُه فيك، فلا تُعَيِّرْهُ بشَيْءٍ تَعْلَمُه فيه، ودَعْهُ يكونُ وبَالُه عليه، وأجْرُهُ لكَ، ولا تَسُبَّنَّ شَيْئاً".

وقال رسولُ الله ﷺ:"إنَّ مِنْ أكْبرِ الكبائرِ أنْ يلْعنَ الرجلُ والِدَيْهِ".

قيلَ: يا رسولَ الله! وكيفَ يلْعَنُ الرجلُ والديه؟ قال:يَسبُّ أبا الرجلِ فيَسبُّ أباه، ويسبُّ أُمَّهُ فيسُبُّ أُمَّهُ".

وقال رسولُ الله ﷺ:"لا يكونُ اللعَّانون شُفَعاءَ ولا شُهَداء يومَ القِيامَةِ".

وقال ﷺ: "ولَعْنُ المؤمِنِ كَقَتْلِهِ".

وقال رسول الله ﷺ: "إن العبدَ إذا لَعَنَ شيئاً صعدتِ اللعنةُ إلى السماءِ، فتُغْلَقُ أبوابُ السماءِ دونها، ثم تهبطُ إلى الأرض فتغلقُ أبوابها دونها، ثم تأخذ يميناً وشمالاً، فإن لم تجدْ مساغاً رجعت إلى الذي لُعِنَ، فإن كان أهلاً، وإلا رجعت إلى قائلها".

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له(٨/ ١٧٦)ح(٦٨٥٨)، ومسلم (٥/ ٩٢)ح(١٦٦٠).

(٢) صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٥٧-٦١).

المسألة الخامسة: القول على الله بغير علم.

القول على الله بغير من أعظم مطالب الشيطان، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

ومما يدل على عظيم جرم القول على الله بغير علم قرنه الله بالشرك وعظائم الذنوب، فقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ومن أبرز مظاهر القول على الله بغير علم: الكذب على الله ورسوله، ودونك من الأدلة ما يبين قبح ذلك وشدة خطره.

قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وقال تعالى:﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى:﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وقال تعالى:﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

وقال تعالى:﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وعَنِ الْمُغِيرَةِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١).

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَلِجِ النَّارَ»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٨٠)ح(١٢٩١)، ومسلم في المقدمة (١/ ٨)ح(٤).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٣٣)ح(١٠٦)، ومسلم في المقدمة(١/ ٧)ح(١).

المسألة السادسة: الاستهزاء والسخرية.

وجاء الشرع بالتحذير من ذلك، ومن الأدلة على التحذير منه:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

والسخرية والاستهزاء بالمؤمنين من صفات المنافقين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٣-١٥].

وقال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

وذكر أن الاستهزاء والسخرية من شأن الكافرين مع المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٦].

وقال تعالى عن الكافر وسخريته من أهل الإيمان : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٦].

ومر معنا جملة من الأحاديث التي فيها التحذير من السخرية والاستهزاء، قال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً! قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ[1]»[2].

وقال ﷺ:"..بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ" الحديث[3].

---

(١) أي: احتقار الناس وازدراؤهم والاستهانة بهم.

ينظر: غريب الحديث لابن سلام (٣/ ٣١٤)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٩٣) ح(٩١).

(٣) أخرجه مسلم (٨/ ١١)ح(٢٥٦٤).

المسألة السابعة: الكذب.

أولاً: معناه.

الاخبار عن الشيء خلاف ما هو عليه عمداً أو سهواً.

قال النووي رحمه الله: «واعلم أن مذهبَ أهل السنّة أن الكذبَ هو الإخبار عن الشيء، بخلاف ما هو، سواء تعمدتَ ذلك أم جهلته، لكن لا يأثمُ في الجهل، وإنما يأثمُ في العمد»[(١)].

ثانياً: حكمه والدليل عليه.

«قد تظاهرتْ نصوصُ الكتاب والسنّة على تحريم الكذب في الجملة، وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب. وإجماعُ الأمة منعقدٌ على تحريمه مع النصوص المتظاهرة»[(٢)].

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وقد أمر الله بالصدق الذي هو ضد الكذب، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وذكره النبي ﷺ في خصال المنافقين: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[(٣)].

---

(١) الأذكار للنووي ت مستو (ص٥٨٢).

(٢) الأذكار للنووي ت مستو (ص٥٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (١/ ١٦)ح(٣٣)، ومسلم (١/ ٥٦)ح(٥٩).

وقال ﷺ: " أَرْبَعُ خِلاَلٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا "(١).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»(٢).

وفي حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه الطويل في رؤيا النبي ﷺ: قَالَ: "فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ، قَالَ: وَرُبَّمَا قَالَ أَبُو رَجَاءٍ: فَيَشُقُّ قَالَ: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى، قَالَ: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ مَا هَذَانِ؟ قَالَ: قَالَا لِي: انْطَلِقْ..»

ثم فسرا الملكان له الرؤيا وهو موطن الشاهد معنا من الحديث، فقالا: «وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ، يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الكَذْبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ»(٣).

وعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَأَيْتُ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي قَالَا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ يَكْذِبُ بِالْكَذْبَةِ تُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٤/ ١٠٢) ح(٣١٧٨)، ومسلم (١/ ٧٨) ح(٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٢٥)ح(٦٠٩٤)، ومسلم واللفظ له (٨/ ٢٩)ح(٢٦٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٩/ ٤٤- ٤٥)ح(٧٠٤٧).

وقال ابن باز رحمه الله: "المؤمن الصادق لا يكذب، ولكن قد يكذب لنقص إيمانه وضعف إيمانه، فالواجب على كل مؤمن أن يحذر الكذب، ينبغي أن يتحرى الصدق، يقول النبي ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب فان الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار»[٢]، ويقول الله جل وعلا: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}، ويقول سبحانه: {هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}.

فالواجب تحري الصدق والحذر من الكذب أينما كان إلا في الأوجه التي يجوز فيها الكذب، تقول أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها: «لم يسمع النبي ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته والمرأة زوجها»[٣]، في هذا لا بأس في الثلاث إذا كذب للمصلحة، في هذه الثلاث فلا بأس: الإصلاح بين الناس، وفي الحرب من غير أن يغدر، وفي حديث الرجل مع امرأته والمرأة مع زوجها»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٢٥)ح(٦٠٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٢٥)ح(٦٠٩٤)، ومسلم (٨/ ٢٩)ح(٢٦٠٧).

(٣) أخرجه مسلم (٨/ ٢٨)ح(٢٦٠٥).

(٤) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة لابن باز (٢٨/ ٤٣٤-٤٣٦).

المسألة الثامنة: الجدال بالباطل[1].

أولاً: تعريفه.

الجدل لغة: يطلق على عدة معان، منها: **الخصومة،** فيقال: جادله أي: خاصمه، ويطلق على **إحكام الفتل،** فتقول: جدلت الحبل أجدله جدلًا، أي: فتلته فتلًا محكمًا، ويطلق على **الصرع،** يقال: جدلته فانجدل صريعًا، وهو مجدول، ويطلق على مراجعة الكلام[2].

والجدل في الاصطلاح: عرفه الراغب بقوله: "المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة"[3].

وعرفه ابن منظور فقال: "مقابلة الحجة بالحجة"[4].

وقال الجرجاني: "الجدل: دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه"[5].

ثانياً: أنواعه، ينقسم إلى نوعين:

الأول: الجدل المحمود، وهو الذي ورد في قول الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٦].

«والمجادلة بالتي هي أحسن هي التي تكون عن علم، وبصيرة، وبحسن الخلق، ولطف، ورفق، ولين، وحسن خطاب، ودعوة إلى الحق، وتحسينه، وردّ الباطل، وبيان قبحه بأقرب طريق موصل

---

(١) ينظر في ذلك: آفات اللسان في ضوء الكتاب والسنة (ص٦٥-٦٨).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة (١٠/ ٣٤٢)، الصحاح (٤/ ١٦٥٣)، مقاييس اللغة (١/ ٤٣٣).

(٣) المفردات في غريب القرآن (١٨٩).

(٤) لسان العرب (١١/ ١٠٥).

(٥) التعريفات (٧٤).

إلى ذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المغالبة وحبّ العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق»[(١)].

الثاني: الجدل المذموم، وسيأتي بيانه في الفقرة الآتية.

ثالثاً: الجدال المذموم.

وهو الجدال بالباطل، «وهو كل جدال أيد الباطل أو أوصل إليه، أو كان بغير علم وبصيرة»[(٢)].

وهو الذي جاءت النصوص بالتحذير منه وهو من أخطر آفات اللسان، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣-٤].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨-٩].

وقال تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

وقال تعالى في تعاون الشياطين من الجن والإنس لإيقاع الناس في الضلال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

---

(١) آفات اللسان في ضوء الكتاب والسنة (ص٦٥-٦٦).

(٢) آفات اللسان في ضوء الكتاب والسنة (ص٦٦).

ونص على النهي عن الجدال بالباطل في الحج لضرره العظيم على عبادة الحج، فقال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وهو الجدال بالباطل لنشر الباطل، وهو كما يقول السعدي رحمه الله في معنى الجدال في الحج:" والجدال وهو: المماراة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة"(١).

أما الجدال المنهي عنه في الحج فهو الجدال بالباطل والخصام والمنازعة والمماراة لأجل أن ينتصر لنفسه ويغصب صاحبه مما يؤدي إلى رفع الصوت والسب والشتائم والمنازعة والفرقة والاختلاف الذي يدخل بسببه الشيطان بينهم.

وأما الجدال بالحق فليس هو من الجدال المذموم، لكن بشرط أن يكون لأجل توضيح الحق وبيانه لمن يجادل في هذا الأمر جهلاً منه بالحكم الشرعي، وكل منهما يريد الوصول إلى الحق، ويدخل فيه مذاكرة العلم(٢).

قال ابن مسعود وابن عباس وعطاء: "الجدال هنا أن تماري مسلماً حتى تغضبه فينتهي إلى السباب، فأما مذاكرة العلم فلا نهي عنها"(٣).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَلَا لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلَا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ»(٤).

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الجَدَلَ»، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} [الزخرف: ٥٨]"(١).

---

(١) تفسير السعدي(ص٩١).

(٢) ينظر: توفيق الرب المنعم بشرح صحيح الإمام مسلم (٣/ ٦٢٩).

(٣) تفسير القرطبي (٢/ ٤١٠).

(٤) أخرجه ابن ماجه (١/ ٩٣ ت عبد الباقي)ح(٢٥٤)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٥٤)ح(١٠٧):"صحيح لغيره".

من أقوال العلماء في الجدل المذموم:

وقال مالك بن أنس رحمه الله : "الجدال في الدين ينشئ المراء، ويذهب بنور العلم من القلب ويقسي، ويورث الضغن"[٢].

وعن الأوزاعي، قال: «إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل ، ومنعهم العمل»[٣].

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: "ما ماريت أخي أبداً؛ لأني إن ماريته إما أن أكذبه، وإما أن أغضبه"[٤].

وقال مُحَمَّد بن علي بن الحسين: "الخصومة تمحق الدين وتثبت الشحناء في صدور الرجال. يقال: لا تمار حكيماً ولا سفيهاً، فإن الحكيم يغلبك، والسفيه يؤذيك"[٥].

والأسلم للعبد البعد عن المراء والمجادلة حتى لو كان محقاً، كما جاء بذلك النص، يقول ﷺ:

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦/ ٤٩٣ ط الرسالة)ح(٢٢١٦٤)، وابن ماجه (١/ ١٩ ت عبد الباقي)ح(٤٨)، والترمذي (٥/ ٣٧٨)ح(٣٢٥٣)، وقال الترمذي: "حسن صحيح"، والحاكم (٢/ ٤٨٦)ح(٣٦٧٤) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٦٩)ح(١٤١)، وقال محقق مسند أحمد (٣٦/ ٤٩٣ ط الرسالة): «حديث حسن بطرقه وشواهده».

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ١٠٦).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٦٤).

(٤) نقله عنه في الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ١٨).

(٥) نقله عنه في الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ١٨).

«أَنَا زَعِيمٌ[1] بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ[2] لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ[3] وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ»[4].

(١) قال الخطابي في معالم السنن (٤/ ١١٠): «الزعيم الضامن والكفيل والزعامة الكفالة ومنه قول الله سبحانه {وأنا به زعيم} [يوسف: ٧٢] والبيت ههنا القصر».

(٢) قال القارئ في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٣٠٣٥) في معنى ربض الجنة: «أي: نواحيها وجوانبها من داخلها لا من خارجها».

(٣) المراء: الجدال.

النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٢٢).

(٤) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٥٣ ت محيي الدين عبد الحميد)ح(٤٨٠٠)، البيهقي في السنن الكبير(٢١/ ٢٢٩ ت التركي)ح(٢١٢١٨)، وصحح إسناده ابن القيم في مدارج السالكين (٣/ ٣٠ ط عطاءات العلم)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٩)ح(٢٦٤٨)، وحسن إسناده محقق سنن أبي داود (٧/ ١٧٩ ت الأرنؤوط)، وقال عنه الشيخ ابن باز: «وهو حديث صحيح جيد لا بأس به».

ينظر: دروس للشيخ عبد العزيز بن باز (٦/ ٣٧ بترقيم الشاملة آليا)، وينظر موقع ابن باز على الشبكة.

المسألة التاسعة: الغناء.

ومن أخطر الذنوب المفسدة للقلوب فعل الغناء أو سماعه، فهو وسيلة من وسائل الشيطان في إفساد القلوب، وتعلقها بغير الله، يقول عنه ابن القيم رحمه الله: "ومن مكايد عدوّ الله ومصايده، التي كاد بها من قلَّ نصيبه من العلم والعقل والدِّين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين: سماعُ المكاء والتصْدية، والغناء بالآلات المحرّمة، الذي يصُدُّ القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفةً على الفسوق والعصيان، فهو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو رُقية اللواط والزِّنى، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى، كاد به الشيطان النفوس المبطلة، وحَسّنه لها مكرًا منه وغرورًا، وأوحى إليها الشُّبَه الباطلة على حُسْنه؛ فقبلت وحْيَه واتخذت لأجله القرآن مهجورًا..." ثم ذكر أقوال العلماء الذين تدور الفتيا عليهم في قاصي الأرض ودانيها في بيان حرمة الغناء[1].

ثم ذكر أسماءه، فقال رحمه الله: "له في الشرع بضعة عشر اسمًا:

اللهو، واللغو، والباطل، والزور، والمكاء، والتصدية، ورُقية الزنى، وقرآن الشيطان، ومُنبت النفاق في القلب، والصوتُ الأحمق، والصوت الفاجر، وصوتُ الشيطان، ومزمور الشيطان، والسمودُ.

أَسْمَاؤُهُ دَلّتْ عَلَى أَوْصَافِهِ ... تَبًّا لِذي الأَسْمَاءِ والأَوْصَافِ"[2].

ثم ساق رحمه الله الأدلة على هذه الأسماء للغناء من الكتاب والسنة وأقوال السلف، في تفصيل بديع واستقصاء كبير لهذه المسألة العظيمة[3].

ثم ساق بعد ذلك الأدلة من السنة على حرمة الغناء في تفصيل بديع[4].

---

(١) ينظر: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (١/ ٤٠٤-٤١٠ط عطاءات العلم).

(٢) ينظر: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (١/ ٤٠١-٤١٩ ط عطاءات العلم).

(٣) ينظر: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (١/ ٤١٩-٤٥٦ ط عطاءات العلم).

(٤) ينظر: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (١/ ٤٥٦-٤٦٩ط عطاءات العلم).

المسألة العاشرة: انشغاله بما لا يعينه.

ومن الأضرار العظيمة على القلب اشتغال صاحبه بما لا يعينه، فيشوش ذلك على القلب ويفسده، قال ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»[1].

وقال ابن رجب رحمه الله في شرحه للحديث: «ومعنى هذا الحديث: أن مِنْ حسن إسلامه تَركَ ما لا يعنيه من قولٍ وفعلٍ، واقتصر على ما يعنيه من الأقوال والأفعالِ؛ ومعنى يعنيه: أنَّه تتعلق عنايتُه به، ويكونُ من مقصده ومطلوبه، والعنايةُ: شدَّةُ الاهتمام بالشيء، يقال: عناه يعنيه: إذا اهتمَّ به وطلبه، وليس المراد أنه يترك ما لا عناية له ولا إرادة بحكم الهوى وطلب النفس، بل بحكم الشرع والإسلام، ولهذا جعله من حسن الإسلام، فإذا حَسُنَ إسلامُ المرء، ترك ما لا يعنيه في الإسلام من الأقوال والأفعال، فإنَّ الإسلامَ يقتضي فعل الواجبات كما سبق ذكره في شرح حديث جبريل عليه السلام.

وإن الإسلام الكاملَ الممدوحَ يدخل فيه تركُ المحرمات، كما قال ﷺ: "المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده" وإذا حسن الإسلامُ، اقتضى ترك ما لا يعني كله من المحرمات والمشتبهات والمكروهات، وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها، فإنَّ هذا كله لا يعني المسلم إذا كمل إسلامُه، وبلغ إلى درجة الإحسان، وهو أنَّ يَعْبُدَ الله تعالى كأنَّه يراه، فإن لم يكن يراه، فإنَّ الله يراه، فمن عبد الله على استحضار قربه ومشاهدته بقلبه، أو على استحضار قرب الله منه واطلاعه عليه، فقد حسن إسلامه، ولزم من ذلك أن يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام، ويشتغل بما يعنيه فيه، فإنَّه يتولَّدُ من هذين المقامين الاستحياءُ من الله وترك كلِّ ما يُستحيى

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٥٩ ط الرسالة)ح(١٧٣٧) عن علي بن الحسين عن أبيه، وأخرجه كل من ابن ماجه (٢/ ١٣١٥ ت عبد الباقي)ح(٣٩٧٦)، والترمذي (٤/ ٥٥٨)ح(٢٣١٧) من حديث ابي هريرة ﷺ، وحسنه النووي في الأربعين النووية (ص٦٤)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه لمسند أحمد (٢/ ٣٥٢ ت أحمد شاكر)، وقال محقق مسند أحمد (٣/ ٢٥٩ ط الرسالة): "حسن بشواهده"، وحكم الألباني بصحته في تخريجه لسنن الترمذي وابن ماجه، ومرة قال :"حسن لغيره" كما في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٩٦)ح(٢٨٨١).

منه...»[1] إلى آخر كلامه الماتع في شرحه للحديث الذي توسع فيه كعادته في جامع العلوم والحكم[2].

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٨٨-٢٨٩ ت الأرنؤوط).

(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢٨٩-٣٠١ ت الأرنؤوط).

المسألة الحادية عشرة: النظر الحرام.

ومن الآفات التي لها أثر كبير وخطير على القلب النظر الحرام، وقال ابن القطان رحمه الله: «حاسَّة البصر إحدى أبواب القلب، وأعمر الطرق إليه، وعملها أكثر أعمال الجوارح وقوعًا وتكرارًا..»[١].

وقد سبقت الإشارة إلى الكلام عن غض البصر عن النظر الحرام، ونضيف هنا بعض آثار النظر الحرام على صاحبه وفي المقابل فوائد غض البصر عن النظر الحرام، نلخصها من كتاب ابن القيم الداء والدواء[٢]:

١- "والنظر أصل عامّة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإنّ النظرة تولّد خطرةً، ثم تولّد الخطرة فكرةً، ثم تولّد الفكرة شهوةً، ثم تولّد الشهوة إرادةً، ثم تقوى فتصير عزيمةً جازمةً، فيقع الفعل، ولا بدّ، ما لم يمنع منه مانع.

وفي هذا قيل: الصبر على غضّ البصر أيسرُ من الصبر على ألم ما بعده.

٢- «ومن آفات النظر: أنّه يورث الحسرات والزفرات والحرقات، فيرى العبد ما ليس قادرًا عليه ولا صابرًا عنه. وهذا من أعظم العذاب أن ترى ما لا صبر لك عن بعضه، ولا قدرة لك على بعضه"[٣].

٣- وقد يكون من أسباب سوء الخاتمة عياذاً بالله[٤].

"ولقد بكى سفيان الثوري ليلةً إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: كلُّ هذا خوفًا من الذنوب؟ فأخذ تِبْنةً من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا، وإنّما أبكي من خوف الخاتمة ".

---

(١) إحكام النظر في أحكام النظر بحاسة البصر (ص٨٥).

(٢) ينظر: الداء والدواء (ص٣٥٠-٤٢٢).

(٣) الداء والدواء (ص٣٥٠-ص٣٥١).

(٤)ينظر: الداء والدواء (ص٣٨٦).

وهذا من أعظم الفقه: أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة بالحسنى"[1].

٤- «فإنّ النظرة سهم مسموم من سهام إبليس. ومَن أطلق لحظاتِه دامت حسراتُه»[2].

ثم ذكر رحمه الله فوائد غض البصر عن الحرام والطريقة لعلاج هذا الداء[3]:

«**أحدها:** أنّه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده، فليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربّه تبارك وتعالى. وما سَعِدَ من سَعِدَ في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره، وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره.

الثانية: أنه يمتنع من وصول أثر السهم المسموم الذي لعلّ فيه هلاكه إلى قلبه».

الثالثة: أنّه يورث القلب أنسًا بالله وجمعية على الله، فإنّ إطلاق البصر يفرّق القلب، ويشتّته، ويُبعده من الله. وليس على العبد شيء أضرّ من إطلاق البصر، فإنّه يوقع الوحشة بين العبد وبيّن ربه.

الرابعة: أنه يقوّي القلب ويفرحه، كما أنّ إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

الخامسة: أنه يُكسب القلب نورًا، كما أنّ إطلاقه يكسبه ظلمة.

ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمم بغضّ البصر فقال: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ} [النور: ٣٠]. ثم قال إثر ذلك: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ} [النور: ٣٥] أي: مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه.

---

(١) الداء والدواء (ص٣٩٠).

(٢) الداء والدواء (ص٤١٥).

(٣) الداء والدواء (ص٤١٥-ص٤٢٢).

وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كلّ ناحية، كما أنّه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشرّ عليه من كل مكان. فما شئتَ من بدع وضلالة، واتّباع هوى، واجتناب هدى، وإعراض عن أسباب السعادة، واشتغال بأسباب الشقاوة! فإنّ ذلك إنّما يكشفه له النور الذي في القلب، فإذا فُقِد ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس الظلمات.

السادسة: أنّه يُورثه فراسةً صادقةً يميّز بها بين المحِقّ والمبطل والصادق والكاذب.

وكان شجاع الكرماني يقول: من عمر ظاهرَه باتباع السنة، وباطنَه بدوام المراقبة؛ وغضّ بصرَه عن المحارم، وكفّ نفسه عن الشهوات، واغتذى بالحلال = لم تخطئ فراسته. وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة.

والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله، ومن ترك لله شيئًا عوّضه الله خيرًا منه، فإذا غضّ بصره عن محارم الله عوّضه الله بأن يُطلِق نورَ بصيرته عوضًا عن حبسِه بصرَه لله، ويفتحَ عليه باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التي إنّما تُنال ببصيرة القلب».

«**السابعة**: أنّه يورث القلب ثباتًا وشجاعةً وقوةً، فيجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقوة، كما في الأثر: الذي يخالف هواه يفرَق الشيطان من ظلّه».

«**الثامنة**: أنه يسدّ على الشيطان مدخله إلى القلب، فإنّه يدخل مع النظرة، وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيمثّل له حسنَ صورة المنظور إليه، ويزيّنها، ويجعلها صنمًا يعكف عليه القلب. ثم يَعِدُه، ويمنّيه، ويوقد على القلب نار الشهوة، ويلقي عليه حطب المعاصي التي لم يكن يتوصّل إليها بدون تلك الصورة، فيصير القلب في اللهيب. فمن ذلك اللهيب تلك الأنفاسُ التي يجد فيها وهج النار، وتلك الزفَراتُ والحُرُقاتُ. فإنّ القلب قد أحاطت به النيران من كلّ جانب، فهو في وسطها كالشاة في وسط التنّور.

ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات للصور المحرّمة أن جُعِل لهم في البرزخ تنّور من نار، وأودعت أرواحهم فيه إلى يوم حشر أجسادهم، كما أراه الله تعالى لنبيّه ﷺ في المنام في الحديث المتفق على صحته.

التاسعة: أنّه يُفرِغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها، وإطلاقُ البصر يشتّته عن ذلك، ويحول بينه وبينه، فينفرط عليه أموره، ويقع في اتّباع هواه وفي الغفلة عن ذكر ربه. قال تعالى: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)} [الكهف: ٢٨]. وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه.

العاشرة: أنّ بين العين والقلب منفذًا وطريقًا يوجب انفعال أحدهما عن الآخر، وأن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده. فإذا فسد القلب فسد النظر، وإذا فسد النظر فسد القلب. وكذلك في جانب الصلاح، فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محلّ النجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه والإنس به والسرور بقربه فيه، وإنّما يسكن فيه أضداد ذلك.

فهذه إشارة إلى بعض فوائد غضّ البصر تُطْلِعك على ما وراءها». أ.هـ ملخص كلام ابن القيم رحمه الله[1].

---

(١) الداء والدواء (ص٤١٥-ص٤٢٢).

فهرس المحتويات

المقدمة..... ٢
التمهيد، وفيه المسائل الآتية. ٥
المسألة الأولى: النصوص الدالة على زكاة القلب..... ٥
المسألة الثانية: معنى زكاة القلب..... ٦
المسألة الثالثة: هل بين زكاة النفس والقلب فرق؟..... ٨
المبحث الأول: أهمية زكاة القلب. ٨
تظهر أهمية زكاة القلب من خلال المحاور الآتية..... ٨
المبحث الثاني: قواعد مهمة في تزكية القلب..... ١١
المبحث الثالث: الأسس العقدية لزكاة القلب، وفيه مطالب. ٢٦
المطلب الأول: الشهادتان وأثرهما على زكاة القلب..... ٢٦
المطلب الثاني: التوحيد وأثره على زكاة القلب، وفيه عدة مسائل. ٣٠
المسألة الأولى: تعريف التوحيد. ٣٠
المسألة الثانية: أقسام التوحيد ٣١
المسألة الثالثة: أثر التوحيد على زكاة القلب:..... ٣٨
المطلب الثالث: الإيمان بالملائكة والكتب والرسل وأثره على زكاة القلب، وفيه
مسألتان. ٤٤
المسألة الأولى: معناه..... ٤٤
المسألة الثانية: أثر الإيمان بالملائكة والكتب والنبيين على زكاة القلب ٤٦
المطلب الرابع: الإيمان بالقضاء والقدر وأثره على زكاة القلب..... ٤٨
المطلب الخامس: الإيمان باليوم الآخر وأثره على زكاة القلب ٥٣
المبحث الرابع: الأسس التعبدية لزكاة القلب، وفيه مطالب. ٦٠

المطلب الأول: التقرب إلى الله بالفرائض..... ٦٠
المسألة الأولى: الصلاة الخاشعة وأثرها العظيم على زكاة القلب. ٦٠
أسباب الخشوع في الصلاة. ٦٣
المسألة الثانية: الزكاة وأثرها على القلب: ٩٠
المسألة الثالثة: الصيام وأثره على القلب: ٩٠
المسألة الرابعة: الحج وأثره على القلب:..... ٩٢
المطلب الثاني: التقرب إلى الله بالدعاء ٩٣
المطلب الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٩٥
المطلب الرابع: التقرب إلى الله بأكل الحلال الطيب وأثره على زكاة القلب..... ١٢٩
المطلب الخامس: التقرب إلى الله بالنوافل ١٣٢
المبحث الخامس: من مظاهر زكاة القلب، وفيه مطلبان. ١٥٠
المطلب الأول: ودونك طرفاً من المظاهر التي تدل على زكاة القلب وسلامته على سبيل الإجمال..... ١٥٠
المطلب الثاني: التفصيل بشيء من الإيجاز في بعض هذه المظاهر في المسائل الآتية.
..... ١٥١
وسيكون الحديث بإذن الله تعالى في ست مسائل مرتبطة بالتزكية. ١٥١
المبحث السادس: من ثمرات زكاة القلب، وفيه عدة مطالب. ١٦٦
المطلب الأول: سلامة القلب. ١٦٦
المطلب الثاني: ومن ثمرات زكاة القلب، ذوق طعم الإيمان وحلاوته..... ١٩٨
المطلب الثالث: أن يرزقه الله الحياة الطيبة في الدنيا ١٩٨
المطلب الرابع: توفيق الله العبد لحسن الأخلاق..... ٢٠٥
المطلب الخامس: المسارعة والمسابقة إلى رضوان الله والجنة. ٢١٢
المطلب السادس: الفلاح في الدنيا والآخرة. ٢١٤

المطلب السابع: السعادة في الآخرة. ٢١٥
المبحث السابع: العوائق والموانع التي تعيق وتمنع من زكاة القلب. ٢٢٣
المطلب الأول: عدم تقدير الله حق قدره. ٢٢٣
المطلب الثاني: الشيطان ومكره..... ٢٢٤
المطلب الثالث: أمراض القلوب. ٢٢٧
المطلب الرابع: إتباع الهوى والوقوع في فتنة الشهوات والشبهات، وفيه مسألتان.. ٢٤٤
المطلب الخامس: مجالسة أهل السوء. ٢٥٢
المطلب السادس: ذنوب الخلوات..... ٢٥٦
المطلب السابع: آفات اللسان والسمع والنظر..... ٢٥٨